ع الأدب العربى
(الأعمال الإبداعية)

فتحى غانم

الجبل



الهيئة المصرية العامة للكتاب

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤

الجبـــــل

الجبل

فتحى غانم

الفصـــل الأول

حدث منذ أكثر من سبع سنوات ، وكنت أعمل في ذلك الوقت مفتشا للتحقيقات بوزارة المعارف أن مررت بتجربة مريرة صدمتني وحولت كثيرا من الافكار التى فى راسى الى مجرد سخافات .. فكل شىء كنت أصدقه واومن به كوسيلة لاصلاح مجتمعنا .. تبخر من راسى كما يتبخر الماء من آنية تغلى فوق النيران ..

نادانى مدير التحقيقات ، ولما دخلت عليه رايته يبتسم ، وانا اعلم جيدا ماذا تعنيه هذه الابتسامة المؤدبة التى تعكس مشاعر الحــــرج والاعتذار .. لقد اعتدت ان ارى الابتسامة على وجهه ، كلما كلفنى بعمل شاق مفاجىء ولكنى لم أدرك فى تلك اللحظة أن ما ساقوم به سيعرضنى الى خطر الموت ، خطر القتل فى جبل فى الصعيد !

خفض المدير من بصره ، وهو يعبث باصابع قلقة بورقة من حجم الفولسكاب مثبتة أمامه فى ملف أوراق أصفر اللون وقال بصوت حاول ان يكون رقيقا حنونا :

ــ أنا فكرت كويس ، وقلت لنفسى انك لسه شـــاب صغير ومش متجوز ..

واستطاع المدير بهذه الكلمات القليلة أن ينقل الى القلق البادى فى إصابعـــه ، انتقل القلق من يديه العابثـــة بالورقة الفولسكاب الى قلبى ..

ولم ارد عليه ، لأنى لم افهم ماذا يريد منى بالضبط ، وماذا يعنى بما يقول ..

واستمر المدير يقول بصوت يزداد رقة وحنانا :

ــ احنا كلنا متجوزين ، وعندنا أولاد ، وحرام يروح واحد متجوز فى هذهالمهمة ...

وزاد قلقى .. وانتعش فضولى .. فهذه اول مرة أسمع فيها عن

مهمه لا يصلح لها مفتش تحقيقات متزوج وله أولاد ، لقد سمعت من قبل عن تحقيقات لا يكلف المدير الشبان العزاب القيام بها ، كان يكون التحقيق فى قضية خلقية فى مدرسة بنات عندئذ يبحث المدير عن احد المحققين المتزوجين الذين يتسمون بالوقار ، ويشتهرون بالتدين الشديد ، والتزمت فى مراعاة اداء الفروض الدينية ، ويكلفه وهو مطمئن بان يقتحم مدرسة البنات ويحقق فى أسرار المدرسات وبنات الداخلية ..

وكنا نحن العزاب من المحققين نسخر من مثل هذا الاختيار ونتساءل كيف يفهم أحد الدراويش المشاكل الخلقية ، وقضايا الحب والغرام ، وكيف يحكم بالعدل ، ذلك المحقق المتزمت فى أمور الدين .. انه ولا شك ينظر الى اية امراة على أن مجرد وجودها خطيئة ، ومجرد لمسها ينقض وضوءه ، فما باله عندما يفكر فى أنها أحبت ، أو شوهدت تذهب الى السينما مع أحد الشبان ، سيتهمها قطعا بالفجور والدعارة، وسيطالب بفصلها من عملها وسيكتب فى تقريره أن هذه المدرسة لا تصلح لتربية الفتيات او ان هذه البنت التلميذة كالميكروب يجب ابعادها عن بقية البنات قبل أن تنقل اليهن العدوى

وكان المدير يسمع احتجاجنا نحن العزاب ، وهو رجل طيب تقى ، فيهز رأسه مستنكرا ويقول :

ــ انتم عايزين تروحوا تحققوا فى قضايا زى دى .. وترجعوا تقولوا المدرسة شريفة لانها احبت حبا شريفا ، ومن حقها ان تختلط بالرجال .. أنا عارف أفكاركم اللى حتخرب البلد .. وبس فالحين تقولوا على نفسكم انكم متحررين ، واننا ناس بتوع زمان ، أيامنا انتهت وخلاص راحت علينا ..

كان هذا هو نوع القضايا الخطيرة والهامة التى يدور حولها النقاش فى ادارة التحقيقات ، ولكنى لم أسمع من قبل عن قضية تصلح للشبان العزاب فقط ، ولا تصلح للمتزوجين ..

وقلت للمدير وانا ما زلت فى حيرة تامة :

ــ خير ان شاء الله .. ايه الحكاية ؟

فسكت برهة ، كانه يدرس بعناية ما سيقوله لى ، وآخيرا رفع رأسه وحدق فى يتفحصنى ، ثم قال :



ـ ثم أنت صحتك كويسة . وما شاء الله اللى يشوفك يفتكرك ملاكم والا مصارع ٠٠ فيخاف منك ٠٠

فسألته فى دهشة :

ـ هو أنا رايح تحقيق ٠٠ والا خناقة ؟

فضحك المدير وقال :

ـ انت رايح عند جماعة حرامية ٠٠

ـ واحنا مالنا ومال الحرامية .. دا شـــغل البوليس والنيابة .

ـ الموضوع كله متعلق بوزارة المعارف لانه خاص بالآثار .

فقاطعته :

ـ فين ؟

ـ فى الجبل الغربى أمام الاقصر ٠٠ يعنى تنام بالليل فى الاقصر ٠٠ هناك استراحة فخمة لمصلحة الاثار بينزل فيها الاب دريتون ، وحتلاقى طباخ عظيم ، وأكل كويس ورخيص ، وبيت يطل على النيل ٠٠ لكن يا بطل الصبح تعدى النيل وتروح الجبل ٠٠

ـ عند الحرامية ؟

ـ تمام ٠٠

فسألته ضاحكا فى غير فهم :

ـ ودول أعمل فيهم ايه ٠٠ امسكهم ٠٠ اقبض عليهم ؟

فمد يده بالملف الى قائلا :

ـ كل حاجة فى الملف ده ٠٠ أنا أشرت عليه ٠ وحولته عليك وكلمت مصلحة الاثار علشان يحجزوا لك الاستراحة ٠٠ وتسافر الليـــلة أو بكره على طول ٠٠ لان مفيش وقت ٠ القضـــية مستعجلة ٠٠

وامسكت بالملف ، وقرأت تأشيرة المدير فى أعلى الورقة الفولسكاب ، وقد كتبها بالحبر الاحمر ٠ عاجل للاســـتاذ فتحى غانم للتحقيق ، وقرأت الكلام المكتوب على الورقة ، بحبر ازرق ثقيل وخط اعتدت قراءته أثناء تحقيقى مع المدرسين الالزاميين ، خط أنيق .. كتب بعناية شديدة ، وفى أسفل الورقة توقيع باسم « حسين على » عن أهالى قرية الجرنة ..

ودق جرس التليفون فى تلك اللحظة ورفع المدير سماعة التليفون وانهمك فى حديث طويل ، لم أنتبه اليه ٠٠ كنت منهمكا بدورى فى قراءة ما كتبه حسين على ٠٠

ومنذ وقعت عينى على السطور الاولى أحسست باننى أنتقل الى عالم غريب .. عالم بعيد عن الواقع .. فيه خيال واحلام . فهذه هى طريقتنا نحن أبناء المدينة عندما نواجه مجتمعا اخر ، غير المجتمع الذى اعتدنا عليه ، نحوله فى الحال فى رءوسنا الى وهم ، أو قصة أو فيلم أو اسطورة ٠٠

هذه هى طريقتنا فى تخيل المناطق البعيدة النائية فى قلب الريف ٠٠ ان الذين يسكنون فى المدينة ينسون أهلهم الذين يسكنون فى القرى وفى مجاهل الريف ، يتجاهلون وجودهم ، انفصام تام يحدث بين الاهل ، وبين الاباء والابناء فتنقطع صلات القربى والدم ، ويذهب كل فريق الى حاله ٠ فريق يعيش فى مصيدة الريف وفريق يعيش فى مصيدة المدينة ، ولا صلة هناك بين الفريقين سوى صدقة أو احسان متقطع من المدينة الى الريف ، أو زيارة تقابل بالفتور والانزعاج من الريف الى المدينة ٠٠ .

حسين على يتكلم باسم أهل قرية الجرنة ٠٠ وانا لا أعرف مكانها ، ولم أسمع عنها من قبل ٠٠ كل ما اعلمه قد سمعته منذ لحظات من المدير ، وهى أنها تقع قبالة مدينة الاقصر ، وأن ما فيها « حراميه » ٠٠ ولكن حسين على لا يبدو أنه أحد « الحرامية » انه يشكو ٠٠يشكو الحكومة من أجل سبب عجيب ٠٠ ان الحكومة تشيد قرية نموذجية ، وهو ومعه جميع أهالى القرية يرفضون الانتقال الى القرية النموذجية ٠٠ لماذا ؟ ٠٠٠ وهنا شعرت بعقل ماكر يكتب ٠٠ اذ مضت الشكوى تعدد أنواعا من الاختلاسات والسرقات ، فى أخشاب وطوب وأدوات البناء فى القرية النموذجية ٠٠ ما صلة هذه التهم بانتقال الاهالى الى المساكن النموذجية ٠٠ هذا هو ما سيكشف عنه التحقيق ، ولماذا يرفض أهالى الجرنة الانتقال الى قرية نموذجية تشيدها الحكومة لهم ٠٠ وانا أفكر فى خيوط ابدأ منها التحقيق ، محاولا ان أعرف بسرعة كم سأمضى من الوقت فى هذه القضية وأقدر لنفسى يوما أو يومين على الاكثر .. أسأل فيهما الاسئلة الجوهرية ، واكتب الاجابات فى المحضر ، وأنتهز الفرصة وأزور الاثار فى المنطقـــة ، ثم أعود الى القاهرة ٠

وكان المدير قد فرغ من محادثته التليفونية ، ولاحظ أنى اقرأ الشكوى فتركني وانصرف الى أوراقه ..
وسألته بعد أن فرغت من القراءة :
ـ ولكن فين الحرامية ؟
فضحك قائلا :
ـ أصل انا زمان رحت فى تحقيق فى المنطقة دى .. كنت لسه مفتش تحقيقات صغير ومش متجوز .. وكانت الدنيا واقفة على رجل ، لان اهالى المنطقة بيسبقوا علماء الاثار ويكتشفوا المقابر وينهبوا الكنوز اللى فيها ويهربوها .. تصور ان ثروة البلد التاريخية ، ومجد الفراعنة كله ، نهبوه الناس دول ..
ـ وعملتم ايه ؟
ـ رحنا ومعانا البوليس والنيابة والاب دريتون مدير مصلحة الاثار .. وبعدين قررنا أن لابد من نقل كل الناس اللى عايشين فى الجبل من مكانهم ، واقترحت لجنة التحقيق انشاء قرية نموذجية فى الجبل علشان يتنقلوا فيها .. الكلام ده كان من خمستاشر سنة .. ومرت الايام ، وبنت الحكومة القرية ، لكن الاهالى مصممين يفضلوا مكانهم فى الجبل ..
ـ والحكومة حتعمل ايه ؟
فقال المدير فى حماس :
ـ لابد من انقاذ ثروتنا القومية .. يتنقلوا بالقوة .. حد يرفض التمدن ، دول ناس جهلة .. حرامية ..
فقلت له :
ـ لكن الشكوى دى من الاهالى .. مش من الحكومة ..
فهتف المدير
ماهى دى طريقتهم فى مقاومة النقل ..
وخيل الى أنى وجدت مخرجا من هذه الورطة التى انا مقبل عليها طرأت على راسى فكرة .. فاسرعت اقول للمدير :
ـ اذن فلا داعى لسفرى .. ما دامت هذه الشكوى مجرد حجة لتأجيل نقل الاهالى ..
فنظر الى المدير فى خبث كأنه يعلم جيدا ما يدور فى رأسى من خواطر وقال :

ـ أنت خايف تروح . احنا قدامنا بلاغ عن سرقات واختلاسات ولا بد ان نحقق فى هذا البلاغ ، ومسألة معرفتك بسبب هذا البلاغ لا دخل لها فى التحقيق . مين عارف . يمكن فيه سرقات واختلاسات فعــلا ..
وكنت أعلم أنه على حق .. فطويت الملف واســـتأذنته فى الانصراف ..
فودعني قائلا :
ـ خد بالك من نفســـك .. رجالة الجبــل شداد ، ومش زى الرجالة التانية .. على العموم يومين متروحش فيهم الســـينما بالليل مع صحابك مش حاجة ..
فقلت له فى ضيق لم احاول اخفاءه :
ـ لا .. مش حاجة ..
وانصرفت عائدا الى مكتبى . وبدأت أروى لزملائى عن المهمة التى أنا مقبل عليهـــا .. كنت أحاول ان اظهر أمامهم فى صورة البطل الذى قبل عن طيب خاطر ، ان يقوم بمغامرة خطيرة فى الصعيد .. وكنت اتكلم عن الحرامية .. كأنى أعرف الناس الذين ساواجههم .. كانت الصورة التى ارسمها فى ذهنى لى ولزملائى .. انهم «كالخط» وأمثاله من وحوش الجبل من زعماء عصابات الصعيد ، الذين نرى فى الجرائد صور جثثهم بين وقت وآخر وقد وقف على رأســها مأمور المركز أو الحكمدار وفى يده المسدس ، ومن حوله ثلاثة من ضباط البوليس وعشرات الخفراء وقد شهروا بنادقهم امام المصور ..
واذا بأحد زملائى يصيح فى ذعر :
ـ ازاى تسافر هناك دلوقت .. ؟!
فقلت له :
ـ ليه .. فيه ايه هناك ؟!
فمد يده الى بصحيفة كان يقرأها وهو يقول :
ـ مكتوب فى الجرنال .. انهم هجموا على القــرية النموذجية اول امبارح وحرقوها .. وقلبوا ترولل .. انت رايح فى وقت خطير !!

***

ووجدت نفسى صباح اليوم التالى فى محطة القاهرة أصعد عـــربة

تكييف الهواء فى قطار الثانية عشرة ظهرا المسافر الى الصعيد .. كانت تصرفاتى عادية ، لكن رأسى لا يخلو لحظة واحدة من صور خيالية مبهمة عن لصوص يعيشون فى جبل قبالة الاقصر ، على ان اواجههم فى لحظة حاسمة .. لحظة يحرقون فيها قرية ، ويقلبون تروللى ، ويتحدون الحكومة ، وتكتب عنهم الصحف اخبارا بعناوين بارزة ..

كنت أشعر بالخطر بطريقة مائعة .. انه خطر اعرفه من خلال كلمات سمعتها .. ومن خلال سطور قراتها فى الصحف خطر بارد متجمد ، لا يؤلمنى ولا يفزعنى .. ولكنه يسيطر على عقلى ويقلق افكارى .. انه خطر من نوع غريب .. خطر اشعر به وانا جالس على مقعد وثير فى عربة مكيفة الهواء ..

وكانت العربة مزدحمة بنساء انيقات يتكلمن بالفرنسية او باللهجة الصعيدية .. ولا فرق بين نعومة اللغتين ، ان اللهجة الصعيدية على لسان المراة الصعيدية ، تصبح ممطوطة مرنة ناعمة .. وفيها رقة .. كل الجفاف الذى يشعر به سكان الشمال فى اللهجة الصعيدية ، مرجعة الى انهم لا يحسنون نطق هذه اللهجة .. فتبدو اذا حاولوا تقليدها منفرة متكسرة .. تماما كما تتلف رشاقة اللغة الفرنسية على لسان من يجهل طريقة النطق بها ..

كان رجل صعيدى انيق أسمر يودع صعيدية شقراء لها عينان زرقاوان ، كان يودعها لانها عائدة الى أسيوط ، وهى تودعه لانه مسافر الى فرنسا ..

وقالت الصعيدية الشقراء للرجل الاسمر بفرنسية عذبة :

ـ متى تصل الى باريس ؟ ..

واجابها الرجل :

ـ اصلها بعد غد ..

فقالت المراة فى حرارة :

ـ قبلتين .. لباريس

ـ قال الرجل فى حرارة اشد .

ـ قبلتين فقط .. ان باريس عشيقتى .. ساقبلها الف قبلة ! ..

ثم انطلقت الشقراء تقول بالصعيدية فجاة :

ـ متنساش تجفل البيبان والشبابيك مليح .. وتشيل خلجاتك فى

الدولاب جيل ماتمشى .. وتجفل الدولاب .. اوعى تنسى كوبس النور .. يعمل حريجة بعدين .. نبجى نجولو ياريت .. ماينفعش ! .

وصدمتنى حروف « الجيم » التى طردت « القافات » من الكلمات وصدمتنى كلمة « الخلجات » التى تستعملها الشقراء بدلا من كلمة « الملابس » .. واثرت فى تلك النغمة من الندب فى كلام الشقراء .. وهى تقول « نبجى نجولو ياريت ، ماينفعش » .

كنت انتقل محمولا بهذه اللهجة الصعيدية الى اقاصى الصعيد والقطار لم يتحرك بعد من محطة القاهرة ..

انه شىء محير حقا ، ان ترى صعيدية وشقراء وزرقاء العينين تحب باريس وترسل لها القبلات ، وتتكلم فى نفس الوقت باللهجة الصعيدية بكل ما فيها من كلمات عتيقة ونغمات الندب والنغم الحزين ..

هذه الشقراء وزوجها الاسمر ، يمثلان الطبقة الغنية المثقفة فى الصعيد .. يمثلان القمة فى مجتمع يقبع فى اسفله « حسين على » الذى يشكو الحكومة باسم اهالى الجرنة ، والحرامية الذين يحرقون القرية النموذجية ويقلبون التروللى ..

كيف تعيش الطبقتان جنبا الى جنب فى صعيد واحد ؟ .. كيف يعيش عشق باريس مع عشق الجبل .. كيف تعيش الشقراء الخائفة من « حريج » بسببه « كوبس النور » فى بيتها فى نفس البيئة التى يشعل فيها الناس « حريجا » فى قرية كاملة ..

هناك فى عربات الدرجة الثالثة تحتشد مئات النماذج من حسين على ، جالسين على المقاعد الخشبية ، الى جانب نسائهم فى ملابسهن السوداء ، وعيالهن الحفاة المتسخى الملابس ، عائدين الى قراهم النائية فى اقاصى الصعيد ..

فارق هائل بين الدرجة الثالثة وتكييف الهواء فى قطار واحد ، انه الفارق بين السلة المملوءة بالشاى والسكر والبيض والملقاة بين المقاعد الخشبية .. وبين تلك الحقائب الجلدية الفاخرة المكتظة بالملابس الصوفية والحريرية ، وزجاجات العطر ، واربطة العنق والارواب دى شامبر .. انه الفارق بين السلة المحمولة فوق رأس امراة مسافرة ، وبين الحقيبة التى يحملها الحمال فى عناية . ويمشى امامه صاحب الحقيبة او صاحبتها ثم يقبض الحمال على ورقة مالية بعد أن يفرغ

من مهمته .. انه الفارق بين المقاعد الخشبية والمقاعد القطنية الوثيرة ذات المفارش المغسولة المكوية .. انه الفارق بين جردل فيه زجاجات مملوءة بماء ملون ، يحاول عبثا ان يبيعها شاب حافى القدمين قد رفع طرف جلابيته فوق كتفه . فظهر سرواله الطويل يصل الى ركبتيه وبين « جرسون » انيق يلبس الجاكت الابيض والبنطلون الاسود ، وينحنى فى ادب ويقدم القهوة التركية والشاى الهندى فى فناجين من الصينى والى جانبها اكواب الماء المثلج ..

ودق الجرس الاول ، يعلن ان القطار على وشك الرحيل ، وودع الرجل الاسمر زوجته الشقراء ، ونشطت الحركة فوق الرصيف، مسافر متاخر يريد اللحاق بالقطار ، وبائع صحف يريد ان يبيع جريدة اخرى ، وصيحات المودعين تختلط بصيحات المسافرين ، وزاد مع هذا الضجيج قلقى ، ونظرت فى حيرة الى الرصيف ، ونظرت فى حيرة الى حقيبة الاوراق الموضوعة على الرف فوق راسى .. داخل هذه الحقيبة ورقة هى السبب فى كل ماانا مقدم عليه .. ورقة مكتوبة من رجل لايركب القطار الا فى الدرجة الثالثة ... وربما لم يركب القطار ولم يره فى حياته ، وانا ذاهب اليه لافتح معه محضر تحقيق ولاساله ما اسمك وما عنوانك ، وما هى تفاصيل شكواك ..

ودق جرس الرحيل ، وانطلقت صفارة القطار ، وانطلق البخار المحبوس فى صدر القاطرة .. وتحرك القطار فى رحلته

كلما توغل القطار فى ريف الصعيد ، زاد شعورى بالانكماش داخل عربة تكييف الهواء .. كل ماحولى من مناظر .. النخيل العالى ، والقرى السوداء ، والماشية التى ترعى ، والفلاحون العائدون من حقولهم .. والاطفال الذين يستحمون فى الترع . والنساء المتشحات بالسواد يمشين بقاماتهن الرشيقة المتهادية .. كل هذه المناظر لاصلة لها بالعالم الذى خرجت منه عربة تكييف الهواء .. تحولت هذه العربة الى جزيرة صغيرة وسط بحر غريب من الخضرة والسواد والجبال الصفراء العالية عند خط الافق ..

من الصعب ان اخرج الان من هذه العربة .. كان ذلك سهلا وانا فى مدينة القاهرة . فالمدينة الكبيرة الواسعة تنتظرنى اما هنا فسيتلقفنى المجهول .. كل مايحيط بى هو عالم ركاب الدرجا

الثالثة . انهم الان يتنفسون بحرية اكثر ، ويستقبلون باعينهم مناظر مالوفة لديهم .. اما انا فلا املك الا الحذر والقلق والانكماش فى مقعدى المريح

وكانت الساعة العاشرة ليلا ، عندما وقف القطار فى محطة الاقصر . الانوار صفراء ، كانها مضاءة بغير نور .. كانها مجرد لون اصفر وسط سواد الليل ، وعربات الحنطور قليلة ، والبلدة خالية من الناس .. صامتة .. وللصمت طنين فى الاذن التى اعتادت على ضجة القاهرة ..

ومضى بى الحنطور الى استراحة الاثار ، سارت العربة على مهل فى طريق بحذاء النيل الذى لم اتبينه فى ظلام الليل ، وحدقت محاولا ان المح شيئا من الشاطىء الغربى ، حيث ينام حسين على الان ، فلم اتبين شيئا .. كان الشاطىء الاخر اسطورة سوداء ، لابصيص نور، ولا صدى صوت ، ولا حتى شبح ينبىء عن وجوده ؛ وفجاة راعنى معبد ضخم ، وممتد لمسافة طويلة .. الاعمدة الهائلة ، والتماثيل الواقفة لملوك متوجين ، وملوك جالسين ، وكتل ضخمة من الحجارة متناثرة كفتات خبز هائل الحجم تاكل منه الالهة ..

وانكمشت مرة اخرى فى مقعدى بالعربة الحنطور ، واحسست بالوحدة ، وتتابعت دقات قلبى مع دقات حوافر الحصان على الارض .. والسائق غارق فى صمت فرعونى ، لاينبس بكلمة واحدة ..

ووقفت العربة اخيرا فى نهاية الطريق .. عند بيت انيق له حديقة ، ولايبدو ان مخلوقا داخله ..

وهبط السائق من العربة ، ونادى باعلى صوته .. وتكرر نداؤه .. وهبطت بدورى ، وصفقت بكلتا يدى .. ولامجيب

وقلت للسائق فى حيرة :

ـ دى استراحة الاثار .. انت متاكد ..

فاجابنى فى وجوم :

ـ ايوه ..

وصفقت من جديد .. ونادى السائق من جديد .. ولا مجيب .

ولم استطع احتمال الغموض الذى يحيط بى ، ولا الوحدة التى تشتد من حولى ، فقلت للرجل :

ـ هوه مافيش حد هنا ..

• فاجابنى الرجل بهدوء قائل :

ـ مانعرفوش :

انه لايدرى شيئا .. ونظرت اليه فى عصبية ، كأنه مسئول عن نظام الاستراحات فى وزارة المعارف ..

ـ يا للا .. على ونتر بالاس ..

وقطعت الطريق الطويل بحذاء النيـل ، وانا احصى النقود فى جيبى ، وهل تكفى للمبيت ليلة فى هـذا الفندق الذى يهبط فيه مليونيرات العالم والسواح الامريكيون ..

وصعدت سلم ونتربالاس الرخامى ، وقلبى واجف ، ولااكاد ارى شيئا من الانوار الباهرة ، ولااكاد اسمع شيئا من ثرثرة امريكيات مسنات فى الشرفة التى يفضى اليها السلم ..

وفجاة رايت جسم رجل يعترضنى ويحدق فى . وانتفضت كالملسوع .. ثم صرخت فى فرح .. انه صـديق قديم . زميل لى فى كلية الحقوق .. لقد نسيت تماما انه وكيل نيابة الاقصر الان ..

ودون ان ياخذ رأيى ، كان قد اصدر امره بحفظ حقيبتى عند موظف الفندق ، حتى يأخذنى الى بيته لانام معه ..

ولى لحظة انتشلنى صديقى من وحدتى وغربتى ، وكان الحديث يدور حار بيننا ، ونحن جالسون فى بهو الفندق ، والى جانبنا سائح وسائحه يلعبان النرد ، بزهر من المطاط لايحدث صوتا ..

قلت لصديقى وكيل النيابة :

ـ ايه اللى حصل فى حريق القرية النموذجية

فسالنى فى دهشة :

ـ حريق ايه ..

فقلت له :

ـ موش حرقوا القرية .. وقلبوا الترولى ..

فزادت دهشته وقال :

ـ فين الكلام ده ..

قلت له :

ـ هنا بالشط الغربى فى القرية النموذجية ..

فعاد يؤكد لى وهو يتفحصنى كأنى رجل يهذى

ـ ما سمعتش عن حاجة زى كده .. هى القرية النموذجية دى فين ؟!

ورويت لصديقى مهمتى ، وكان يستمع الى فى دهشة ، قلت له عن « الجرنة » التى تقع فى الشاطىء الغربى أمامنا ، ورويت له عن القرية التى شيدتها الحكومة لأهل الجرنة ، حتى ينتقلوا اليها ، ويكفوا عن سرقة الاثار ، وعن تمسك أهل الجرنة بالجبل الذى يسكنون فيه ، حتى يستمروا فى نهب الاثار ..

وهز وكيل النيابة كتفيه وقال :

ـ على العموم .. الشط الغربى خارج حدودنا .. خارج حدود القانون والمدينة ومشاكل الامن والبوليس ، لا يوجد الان فى هـذه اللحظة من الليل رجل بوليس واحد هناك ، ولا أجنبى واحد .. لا من السياح ولا منـا نحن ، حتى أهل الاقصر لا يجسرون على البقاء فى الشاطىء الغربى بالليل . قد نستطيع الذهاب فى الصباح كسواح أو علماء اثار . ولكن بمجرد أن تغيب الشمس يرحل الجميع ، ويبقى اهل الجبل مع الجبل وحدهم لا تشاركهم فيه الدولة ولا أى مخلوق اخر ..

فسالته :

ـ والمهندس الذى بنى القرية النموذجية .. كيف استطاع بناءها ؟

فسكت قليلا كأنه يتذكر شيئا ، ثم هتف :

ـ المهندس .. نعم تذكرت .. هنا مهندس مشهور شفته هنا مع اجانب وسواح .. مهندس شيك وشكله زى الفنانين الكبار الاجانب ..

ثم نظر الى فى اهتمام وقال :

ـ ده حتى الاميرة مهتمة بيه .. تعرف انها هنا . يمكن تفوت قدامنا دلوقت ! ..

ولم استطع أن أظفر من صديقى باجابة مفيدة على الاسئلة التى تدور فى رأسى ، فكيف نشرت الصحف نبأ الحريق دون أن تعرف به النيابة .. وكيف استطاع مهندس أنيق فنان أن يبنى

قرية وسط رجال يعادون المشروع ويقاومونه

قلت له :

ـ هل لنفوذ الاميرة صلة بانشاء القرية ؟..

فأجاب :

ـ لا شك ..

فعدت أسأله :

ـ اذن لماذا لا يستطيع نفوذ الاميرة أن يجبر أهل الجبل الانتقال الى القرية ؟

ـ لا أدرى ..

وصمم صديقى على أن نبقى لنرى الاميرة ..

وأحسست أنه يعانى من شعور مزمن بالوحدة ، وانه كوكيل نيابة يضطر الى عدم مخالطة الناس ، فيأتى الى بهو الفندق ويجلس فيه وحيدا متعاليا فى مظهره .. مسكينا وحيدا فى داخل نفسه .. ويبحث عن متعة أو تسلية خفية لا يدركها أحد من الناس .. كان يمتع نفسه برؤية الاميرة فى تلك الايام القليلة التى تهبط فيها الى الاقصر ..

يجلس وينتظرها حتى تمر أمامه ، فتنتهى سهرته ، كأنه ذهب الى سينما أو مسرح ، ويعود الى بيته وينام ..

ومرت الاميرة فعلا .. جرت أمامنا فى لحظة خاطفة ، وخلفها يجرى ثلاثة شبان طوال لا شك انهم أمريكيون تفضح جنسيتهم قمصانهم المشجرة ، ومشيتهم السريعة ، وجسمهم المتراخى ، ونظراتهم القلقة البلهاء ..

وكان مرور الاميرة ، لحظة مقدسة عند صديقى ، فتجمد فى جلسته وربما منع نفسه من التنفس ، وكف قلبه عن الخفقان فقد تنهد بشدة ، وأخذ نفسه بقوة بعد أن مرت ..

ثم همس فى غيظ مكبوت :

ـ ملقيتش غير الخواجات تصاحبهم ، تفتكر ليه ؟

ـ ليه ؟

ـ علشان تقدر تعمل معاهم أى حاجة أما احنا يا مصريين فلازم تظهر قدامنا أميرة .. وتعاملنا على اننا عبيد عندها

ثم أمسك بيدى وصاح :

ـ ها هو المهندس الذى تسأل عنه ..

ومر أمامى رجل شاحب طويل يتكلم مع شلة من رجال وسيدات بالفرنسية .. وكان صوته ناعما لينا .. فيه ملل وسأم .. وكان يبدو عصبيا رغم هدوئه الظاهرى ..

وكانت أول مرة اشاهد فيها الرجل الذى يشكوه حسين على من أهالى الجرنة



الفصل الثانى

فتحت عينى على منظر وكيل النيابة .. واقفا « بالفانلة واللباس » ممسكا بكوب شاى يقدمه الى وأنا راقد فى السرير

كان منظره مناقضا تماما لمظهره ، وهو جالس فى بهو فندق ونتر بالاس ، أو عندما يجلس على منصة الاتهام فى المحكمة وقد علق وشاحه الاحمر فوق صدره . ووضع الطربوش فوق راسه ، ينظر الى المتهمين فى تعال وغطرسة وكبرياء ..

كان مجردا من مظاهره ، وكان مسكنه مجردا ايضا من كل شىء حجرة ليس فيها غير سرير « سفرى » كسرير المستشفى ، اتسع لنا بصعوبة ، ومسمار مثبت فى الحائط علق عليه كل ملابسه المتسخة، ومقعد خشبى قاعدته مكسورة ، لا يصلح للجلوس ، فاستعمله كدولاب يضع فوقه ملابسه النظيفة المكوية ..

وهناك حجرة أخرى خاوية ، كدست فيها كتب القانون ، وملفات القضايا على الارض المتربة ، وفى أحد اركانها مائدة خشبية ، فوقها وابور جاز ، وصحون فيها بقايا طعام تعفن ورباط عنق وقع على الارض ونسيه فى مكانه لعدة ايام

أما المطبخ فمعتم ، ملىء « بالكراكيب » .. وحلل وكتب وحقائب سفر ، وسلم خشبى ، وصناديق خشب ، وزجاجات بيرة فارغة و « طشت » وأشياء أخرى كثيرة ، لم اتبينها فى الاركان المعتمة . ولم يكن فى المطبخ « لمبة » تضيئه ..

قمت من السرير ، وارتديت حذائى فى الحال ، فلم يكن عنده « شبشب » أضعه فى قدمى ، أما هو ، فكان يتجول فى مسكنه بقبقاب خشبى يطرقع على البلاط معلنا بصوته الرتيب احتجاجا عاليا على الحياة فى هذا المسكن ..

ولكن الاحتجاج الصادر من طرقعة القبقاب ، لم يكن ظاهرا فى

نفس صديقى .. كان مستسلما فى شبه تخدير ، يروح ويجىء ، وكانه يعيش حياة طبيعية

— وفاجانى بزجاجة كولونيا « اتكينسون » وبيريانتين فاخر ورأيته يعتنى بحلاقة ذقنه ، ويسكب الكولونيا بغزارة على وجهه ويعطر بها منديله ، واختار من فوق الكرسى الخشبى ، بدلة فاخرة ارتداها وهو يقول لى انها « صوف انجليزى ممتاز .. ماركة دورمى » ،ولمع حذاءه « الكنج » الذى اشتراه من القاهرة بخمسة جنيهات ، وتحول فجاة الى رجل أنيق ، ووضع الطربوش فوق راسه ، فاصبح وقورا ، وتغيرت ملامح وجهه ، كانه لم يكن منذ دقائق يصنع الشاى فوق وابور الجاز وهو « بالفانلة واللباس » ..

وخرجنا الى الشارع . هو وكيل نيابة الاقصر ، الذى يعرفه كل الناس ويرهبونه ، وأنا صديقه الذى احتمى به لو حدث لى شىء هناك .. فى الشاطىء الغربى ، عندما اعبر النيل لاحقق فى شكوى أهالى الجبل .. الاهالى الخطرين الذين يتحدون الحكومة ..

وقال صديقى وهو يودعنى :

— اذا لقيت أى صعوبة .. بلغ النيابة .. انت مفتش تحقيقات فى وزارة المعارف .. لا انت بوليس ولا نيابة بلاش تدوش دماغك اذا كانت الحكاية خطيرة بلغنا ، واذا كانت بسيطة اقفل المحضر بسرعة ، وتعال نتغدى سوى ..

ورحبت بالفكرة ، وودعته ، وناديت الحنطور وأمرت السائق ان يذهب بى الى تفتيش الاثار ..

كنت أحس بشىء من الغموض ، على الرغم من الطمانينة التى أدخلها صديقى فى صدرى ، فهذه أول مرة فى حياتى أقوم فيها بتحقيق بين أهالى قرية والحكومة .. والشكاوى التى حققت فيها من قبل .. كانت بين أفراد ، بين مدرس وناظر مدرسة ، بين ولى أمر تلميذة ومدرستها .. كان أفراد التحقيق محصورين دائما ومن السهل على استدعاؤهم والتفاهم معهم ، لان عقليتهم قريبة من عقليتى ، وموضوع الشكوى يمس تصرفات معتادة أعرفها! ..

اما التحقيق بين قرية وحكومة ، فهو شىء جديد تماما لم أعرفه من قبل ..

ورأيت أن أبدا أول خيــــط من خيـــــوط التحقيق من تفتيش الآثار ، ليدلنى كبير المفتشين على طريقة الوصول الى الشاطىء الغربى، واسمع منه شيئا عن أهل الجبل وقصة القرية النموذجية .. وأسأله أيضا عن الاستراحة التى عجزت عن دخولها فى الليلة الماضية .. .

وانتبهت فجأة من أفكارى ، على منظر النيل ، والشاطىء الغـربى والجبل متوهجا بضوء الشمس ، وكان مركب كبير يسير فى النيل ، فى مؤخرته ساقية خشبية تدفع الماء وراءها فى شلال من الماء الابيض، فيندفع المركب الى الامام .. ومراكب شراعية كبيرة وصغيرة ،تتهادى فى سكون ، وشريط ضيق من الارض الخضراء بحـــذاء الشـــاطىء الغربى .. واراحتنى رؤية الارض الخضراء ، انها ارض طيبة حنون ، سمحت بها قسوة الجبل وخشـــونته ورمال الصحراء الممتـــدة الى ما وراء الافق ..

ووصلت مبنى التفتيش ، واقتحمته بشعور المحقق الذى اعتاد ان يدخل المدارس وادارات الوزارة ، فيثير القلق والرهبـــة ، وينتفض السعاة وقوفا امامه بمجرد ان يعرفوا شخصه ، ويعامل من الموظفين كبارا وصغارا باهتمام وتملق وخوف ...

ومضيت فورا الى حجرة كبير المفتشين .. فاعترض طريقى احــد السعاة ، فلم اكترث له ، ودخلت الحجرة فاذا بها خاوية ..

ولم يظهر الساعى إهتماما كبيرا عندما عرف أنه امام مفتش تحقيقات، وقال لى فى هدوء أشبه بالبرود :

ـ حضرة المفتش مع سمو الاميرة ..

قالها لى ، وكأنه هو ايضا مع سمو الاميرة ، وفى حمايتها

وأدركت فى الحال ، أن كل هيبتى قد تبخرت ، فلا احد فى هذا المكان من كبير المفتشين الى أصغر السعاة ، سيهتم بمحقق مثلى ، ولا حتى بوزير المعارف ، ولا رئيس الوزراء نفسه ، ما دامت هناك صلة بينهم وبين سمو الاميرة ..

وجاءنى أحد الكتبة ، وروى لى فى اعتداد ، أن حضرة المفتش يشرح لسمو الاميرة آثار مدينة « عابو » ..

قلت فى غيظ مكتوم :

ـ وأشوف حضرة المفتش امتى ؟ ..

فابتسم وقال فى خبث .

ـ والله حسب ظروف سمو الاميرة ، اصلها مغرمة بالآثار وبتطلب حضرة المفتش علشان يشرح لها كل حاجة ..

فقلت له :

ـ يعنى الشرح ده .. ح يستمر كتير ..

فهز رأسه قائلا :

ـ معرفش .. يومين .. اسبوع .. سمو الاميرة هى اللى تحـدد الوقت ..

وزاد غيظى ، وانهارت مقاومتى فى نفس الوقت ، لم يعد هنـاك مجال لان أقوم بدور مفتش التحقيقات المهاب الخطير .. واضطررت لان اشرح للكاتب ظروفى ، انه شىء ما كنت اقــدم عليه ، فلو اننى وجدت كبير المفتشين . كنت تجاهلت هذا الكاتب واحتقرت شأنه ، وافترضت ان عملى سرى لا يصح ان يعلم به مثل هـــذا الموظف الصغير ..

وقلت للكاتب :

ـ انا عندى تحقيق فى الجرنة .. ازاى أوصل لهناك ؟

فقال الرجل ببساطة :

ـ حضرتك تاخد مركب وتعدى النيل .

كان يتكلم وكأنه يقول « وأنا مالى » ..

وصحت فى الرجل فى انفعال :

ـ دا تحقيق خطير .. والنيابة مهتمة بيه .. انا صديقى وكيـل نيابة الاقصر كان لسه بيسألنى عن التحقيق ..

كنت أكذب وأتلقف اى شىء وأقول أى كلام ، حتى أستـــعيد هيبتى ..

والتفت الكاتب الى الساعى وقال له :

ـ شوف للبيه مركب توصله ..

قالها وكأنه يقول .. خلصنا منه ..

وخرجت وراء الساعى ومشيت فى الشارع وأنا أحس بمــرارة وتعاسة .. وأن وظيفتى والتحقيق الذى أقوم به وكل شىء ، قــد تضاءل واصبح تافها أمام وجود الاميرة فى الاقصر

وتلقفني مـركب شراعي ركابه بعض القرويين يحملون سـلالا وصفائح منطاة ، بينهم رجل فى ملابس العمل يمسك آلات تصليح الطلمبات ومواسير المياه .. والمراكبى قد غطى رأسه بعمامة كبـيرة وارتدى سروالا له « تكة » من الحبل الغليظ

كانت الفوضى على ظهر المركب قريبة من الفوضى فى بيت صديقى وكيل النيابة.. الفارق الوحيد بينهما ، ان هذه فوضى غير مستترة .. ظاهرة فى عرض النيل ،، بينما الفوضى فى بيت صديقى يقنعها صديقى بعطر الاتكنسون والصوف الانجليزى والطربوش ..

وصاح العامل وهو يخبط بكف يده على كماشة كبيرة فى يده .. كان يتكلم مع المراكبى وكانه يحدث فى نفس الوقت جميع من فى المركب :

ـ وين الاميرة دلوقيت يا محمدين ؟

فاجاب الريس ضاحكا :

ـ عندك هناك ها فى البر الغربى

وعلا صوت العامل فى انفعال قائلا وهو يضحك :

ـ كل يوم يا بوى .. يجيبولها ضابط حليوه • من العيال بتوع مصر و .. ع .. تبدلهم ..

ـ بيحرسها ..

ـ تاخدنيش نا احرسها ليلة .. بذمتى لو حرستها ليلة ماتبدلنى واصل ..

وضحك المراكبى .. وضحكنا جميعا ..

وقال المراكبى :

ـ تروح فين انت بخلجاتك المجطمة يا شحات فى الاكابر . احنـا فجرا يا بوى خلينا فى حالنا ..

فمط العامل رأسه ومد يديه وهو ممسك بالكماشة وقال :

ـ بذمتى يا رجالة .. تتلهط لهط .. خشـمها .. عم بينجط عسل ، والله بطنها يا بوى .. عم بيترجرج زى العجين الخمرانى ..

وشعرت براحة نفسية غامرة ، وأنا استمع لكلام العـامل ، حطم الرجل بكلماته البسيطة المعبرة ، تلك الرهبة التى شعرت بهـا عندما ران علينا الصمت ، وهى تمر أمامنا فى بهو فندق ونتر بالاس

فى الليلة الماضية • كما حطم الرجل تلك القـداسة التى احاطت بالاميرة وهذا الجو من التعالى والكبرياء الذى ساد تفتيش الآثارلمجرد أن كبير المفتشين ذهب ليشرح لها آثار مدينة هابو ..

كانت الاميرة هنا مجرد امرأة .. يروون عن ضباط حرسـها القصص ، وينظرون اليها كانثى يشتهيها الرجال .. وهم الرجال الجديرون بها ..

ووصلنا الى الشاطىء الغربى ، وهبطت اليه ، وانا أسأل المراكبى فى حيرة :

ـ القرية النموذجية فين ؟ !

فقال المراكبى وهو يشير أمامه :

ـ لورى الآثارات عندك ها ..

ولم ينتظر الرجل ، وصاح ينادى على سائق لورى كبير مكتـوب على جانبه « مصلحة الآثار »

وجاء السائق ، فقال له المراكبى :

ـ وصل الافندى .. عندكم ..

ولم يناقشنى السائق ، وأخذنى معه ، وأركبنى فى المقعدالامامى، بينما انهمك فى حديث طويل.وهو واقف الى جانب اللورى مع بعض القرويين ..

واخيرا صعد ومعه رجل واسع العينين ، فيهما التهاب حاد ، حافى القدمين ، يلبس صديريا مخططا بخطوط زرقاء وسـوداء وسروالا متسخا ، ومرة أخرى تذكرت صديقى وكيل النيـابة وضحكت فى نفسى ، وأنا أتخيله « بالفانلة واللباس »

وحشرانى بينهما وانطلق بنا اللورى الى القرية النموذجيـة وأنا اعجب كيف وصل بى الحال الى ان اذهب الى تحقيق ، وأنا فى هـذا الوضع الغريب .. اركب لورى بين سائقه ورجل حافى القدمين ..

وكان السائق يتحدث مع زميله عن « الست الخوجاية » ويبـدو أنها طبيبة .. اذ كان الرجل المصاب بالتهاب فى عينيه ذاهبـا اليها لتعالجه ..

ولم أفهم شيئا قاله الرجل بلهجة مريبة ، وهو يتحدث مع السائق ..قال له فجأة :

ـ بذمتى ما أنا رايح للست « الخوجاية » دى .. زى اللى فى بالك .. عمرى ما عتبت دارها يا شيخ فى العتمة ..

فقال له السائق :

ـ ما أنا عارف انك رجل زين ..

انتبهت فجأة الى أنهما يتحدثان عن شيء مريب .. ان هذه الست « الخوجاية » ، لا تقوم بالتمريض فقط .. فهنـــاك من يزورونها فى العتمة .. لماذا ؟

وانتظرت متوقعا أن أسمع المزيد .. ولكنهما غرقا فى صمت تام

ومر اللورى بشريط حديدى ضيق ، عليـــه بعض عربات نقـــل الحجارة والترولل .. ولم أستطع منع نفسى من السؤال عن حـادث قلب عربات الترولل وحريق القرية .. الذى قرأت عنه فى الصحف وأنا فى القاهرة ، ولم يسمح به وكيل النيابة فى الاقصر ..

وسالت السائق :

ـ هما قلبوا الترولل امتى ؟

فاجاب الرجل عن يمينى :

ـ جلبوه من غيظهم من المهندس يا إفندى ..

قالها وكأنه يرحب بما حدث ..

وسالته :

ـ والبوليس عمل ايه ..

فقال الرجل دون أن يستريب فى أسئلتى :

ـ ولا حاجة .. جلبوه فى العتمة .. وحرجـــوا الشـــونة فى العتمة ..

وسالته مستفسرا :

ـ حرقوا الشونة ، والا القرية كلها ..

فضحك الرجل وقال :

ـ حرجوا جنار الشونة .. وطفوا الحريجة جبل ما تشملها

كان اللورى ينطلق بنا بين حشائش خضراء ممتدة من حولنـــا وكانت تبدو من الشاطىء الآخر على شكل شريط ضيق ، وقام وسط الحشائش تمثالان فرعونيان ضخمان ينظران الى الشرق فى سكون عميق ، وعن بعد ظهرت أطلال مدينة فرعونية بمعابدها وأعمـــدتها

وبواباتها الصخرية .. ثم ظهرت قرية سمراء مبنية من الطـــين النيء ..

واحتشد بعض العمال أمام احدى الدور تخـــرج منها ضوضاء « موتور » وكان فى داخل الدار مصنع ووقف اللورى فجاة وسالنى السائق :

ـ انت رايح للافندى المعاون ..

فقلت له :

ـ لا .. أنا عايز حضرة المهندس ..

ونظر السائق الى فى دهشة ، كان مثلى لا يصح أن يقابل المهندس، وأشار الى احدى الدور ، لها سور عال من الطين وقال :

ـ المهندس .. فى الدار دى ..

***

ودخلت دار المهندس ، فرأيت شجرة كبيرة مزروعة وسطحوش وسمعت صياحا حادا لصوت امرأة تتكلم بالفرنسية وكان الصوت صادرا من أحد الابواب المفتوحة المطلة على الحوش ..

وذهبت الى مصدر الصياح ، وعند مدخل حجرة صغيرة ، رايت امرأة اعرابية تضع عمامة زرقاء فوق رأسها ، وجمعت شـــعرها الاشقر كله تحت العمامة ، وترتدى عبـــاءة من الصوف الخشن ، ووقفت فوق كرسى وسط الحجرة ، وفى يدها لمبة كهربائيـــة تلوح بها فى عصبية وتقول :

ـ انتم تريدون الخراب لهؤلاء المساكين .. تريدون طحنهم والقضاء عليهم ..

حيرنى منظر المرأة .. انها فرنسية فى ملابس الاعـــراب الذين نراهم فى الافلام الامريكية الملونة ..

ولمحت المهندس فى منظر غريب ، كان يرتدى عبـــاءة صـــوفية خضراء فوق قميص وبنطلون ، ويضع على رأسه « بيريه » بنى اللون، ويقف وسط الحجرة مواجها الثائرة باللغة الفرنسية وهو صـــامت كتمثال درس الفنان الذى صنعه ، وقفته بدقة وعناية شديدين ..

واستمرت المرأة تصرخ بالفرنسية :

ـ انتم همج .. وحوش .. يجب أن تأمر بازالة موتور الكهرباء

الذى جئتم به هذا الصباح ، ساحطم لكم الاسلاك • سانسف الموتور .. ساقاوم هذه البشاعة التى جئتم بها الى هذا المكان ..

والقت المراة باللمبة الممسكة بها ، ولحسن الحظ لم تتحطم ولكنى سمعت صوت صرخة نسائية ضعيفة ..

وتقدمت خطوة ، بعد أن كنت قد تراجعت خطوات وتواريت عن فتحة الباب ، وأنا ارى المراة تقذف باللمبة على الارض ..

ورأيت الحجرة الضيقة تتسع لسيدتين أخريين بلغتا مرحلة الكهولة لا يقل سنهما عن الستين وربما السبعين ، وكان واضحا انهما أجنبيتان ..

وخرج المهندس من هدوئه ، وتكلم دون أن يغير وقفته الفنية وقال كلمات ثائرة بصوت هادىء يطغى عليه الملل والسام•قال بالفرنسية:

ــ سيدتى أن أعصابى لا تحتمل كل هذا .. ان ما تفعلينه لا يليق .. آه يا ربى كم أعانى فى هذه المهمة اللعينة التى اقوم بها ..

وهبطت المراة « الاعرابية الفرنسية » من فوق الكرسى الذى تقف يليه .. وصاحت :

ــ لقد انذرتك ..

واقتحمت باب الحجرة خارجة منه ، وعباءتها تشغل حيزا كبيرا من الفضاء حولها ، ومستنى بعباءتها ومضت الى خارج الدار تتمتم فى غيظ ، واختفت عن الانظار ..

ورآنى المهندس ، نظر الى طويلا ، ثم حول بصره عنى ، والتفت الى السيدتين العجوزتين ، وقال لهما بالفرنسية :

ــ آسف لما سببته لكما هذه السيدة من انزعاج .. انها تكرهنا ، ولا تحتمل وجودنا هنا ..

والتفت فجأة وراءه فلما رآنى واقفا ظهر عليه التردد والقلق ..

وتقدمت داخل الحجرة وقلت له :

ــ انا مفتش تحقيقات بوزارة المعارف وفيه موضوع خاص بالقرية عايز اتكلم معاك فيه ..

ونظر الى المهندس فى يأس قائلا :

ــ كل المتاعب يا ربى فى يوم واحد

والتفت الى السيدتين العجوزتين وكانتا تتاملانى فى فضول وقال لهما بالفرنسية ..

ــ اقدم لكما حضرته .. موظف بالوزارة ..

ثم التفت الى وقدمهما الى قائلا بالفرنسية :

ــ مدام « .. » والمدموازيل ابنتها ، جاءتا اخيرا من الصين انهما فنانتان كبيرتان .. أرجو أن تجلس معهما حتى انتهى من مشكلة « الموتور » ..

واحنى راسه فى أدب جم وانصرف خارجا وكانه لم يسمع انى مفتش تحقيقات ، وانى جئت من أجل تحقيق ..

وضايقنى انى لا أعرف بالضبط أى السيدتين العجوزتين هى الام ، وايهما هى البنت .. الاثنتان بلغتا سنا لا فرق فيه بينهما ، وبدأت أواجه احتمال أن احداهما قد جاوزت المائة عام ، فاذا كانت الابنة فى الثمانين ، فلابد أن تكون الام قد جاوزت المائة ..

وقالت لى احدى العجوزتين فى هدوء !

ــ ايها الشاب .. هيا بنا نخرج الى الحوش ، ونجلس هناك تحت الشجرة ..

ومدت لى يدها لاساعدها على النهوض ، ومدت لى الاخرى يدها ايضا وامسكت باليد الثانيةكراسة و «البوم»صور وسارتا فى نشاط يتناسب سنهما ، وجلسنا ثلاثتنا على « دكة » خشبية تحت الشجرة ..

كانت جلسة عائلية ، لا صلة لها بالتحقيق الذى جئت من أجله ، وقررت بينى وبين نفسى ان اعامل واحدة منهما على انها الام .. و «المدام» لانها كانت تلبس فستانا أسود ، واقصر قامة من الاخرى التى تلبس فستانا رماديا فيه بقع سوداء كبيرة ، وجسمها مترهل بالسمنة .. اقنعت نفسى بأن الام هى التى تلبس الفستان الاسود .. والمدموازيل هى التى تلبس الفستان الرمادى ..

وسالتنى الام

ــ انت فنان ايها الشاب .. ؟

ووجدت انه من قلة الذوق ان اخبرها بانى جئت فى تحقيق وأن

هناك بعض الاتهامات الموجهة الى القرية ..
فاجبتها

ـ نعم ..

ـ وصديق للمهندس ..

فهززت راسى قائلا :

ـ هذه هى اول مرة اتعرف فيها عليه ..

فهزت هى الاخرى راسها وقالت

ـ انه فنان عظيم . انظر إلى هذا البيت . هل رأيت سقوف الحجرات على شكل قباب .. هل رأيت النوافذ أنظر الى هذه الحديقة داخل السور الكبير ، انك لا تجدها فى أى مكان اخر فى العالم .. انها مصرية اصيلة .. يجب ان تعيشوا جميعا أيها المصريون فى بيوت مثل هذا البيت .. انتم تخطئون كثيرا بتقليدنا ..

وتدخلت المرأة ذات الفستان الرمادى قائلة :

ـ ماما ..

وتنهدت فى ارتياح ، فقد تأكدت من صدق تخمينى ..

واستأنفت الابنة التى فى الثمانين من عمرها تقول :

ـ ولكنهم يفسدون الطبيعة .. ربما تصلح هذه المبانى للمدن كالقاهرة والاسكندرية . افضل أن يعيش الاهالى فى كهوفهم فى الجبل .. حتى لا تفسدهم المدينة كما أفسدتنا .. كان الافضل انشاء هذه القرية النموذجية فى القاهرة ..

وهزت الام راسها عدة مرات ، ولم تقل شيئا .. غرقت فى بحر من التامل العميق ..

كانتا تتحدثان فى حسرة ، ولم أعرف ماذا اقول لهما .. تخيلت القاهرة .. وكلها مبان من الطين النيىء ، ثم ريف مصر كله ، والفلاحون يعيشون على الطبيعة .. طبيعة الارض والصحراء وكهوف الجبال التى تحف بالحقول .. وعجبت كيف يفكر مخلوق فى ان الحياة على هذا النحو تكون حياة سعيدة ..

وتورطت فى المناقشة فقلت لهما :

ـ كيف يكون الناس سعداء .. وهم يعيشون كالحيوانات فى كهوف الجبل ..

فظلتا تتاملانى لفترة طويلة .. وتبادلتا النظرات ثم قالت الام فى استنكار :

ـ لقد فسدت عقليتكم فى الشرق .. حتى فى الصين سمعتهم يرددون هذا الكلام .. أنتم تريدون تحويل كل شىء الى باريس .. المدن الكبيرة فقط ، ولكن كل قرية كل كوخ تحلمون بانه لابد أن يصبح كباريس يوما ما .. تدخله الكهرباء ، والكباريهات ، والكتب فكار والانهيار الخلقى . وانعدام الذوق .. وضياع الفن .. لقد نا يا بنى من باريس لانه لم يعد فيها فن وتجولنا فى الشرق نبحث ماوى نلجا اليه ، ولكن باريس تلاحقنا فى كل مكان .. باريس التى ماتت مع « رودان » !

وأردت ان أظهر لها معرفتى بالفن .. فقلت :

ـ رودان كان مثالا عظيما ..

فقالت ببساطة :

ـ لا أحد ينكر هذا .. انه بيتهوفن الموسيقى . شكسبير الادب .. كان عشيقى ، هذه هى ابنتى منه ..

وتجمدت فى مقعدى .. ان رودان من عظماء القرن التاسع عشر لابد انها عجوز جدا .. هل بلغت المائة والخمسين ، غير معقول ان أستمع من امرأة فى مثل هذا السن انها كانت عشيقة .. غير معقول ان اواجه عشيقة « بتهوفن » أو « رودان » فاحسست بجو خرافى يحيط بى ..

وانتابنى قلق مفاجىء ، متى أنتهى من هذا التحقيق ؟

من المستحيل أن ألحق الان بصديقى وكيل النيابة فى موعد الغداء .. وملابسى كلها عنده .. والمهندس قد اختفى .. وامرأة غريبة تهدد بنسف موتور الكهرباء .. وعجوز تقول انها عشيقة رودان .. وانا جالس على « دكة » تحت شجرة فى حوش .. كيف أتصرف .. انى لا أستطيع أن أتنبأ بما سيحدث او بما سارى او اسمع فى اللحظة القادمة

وأمسكت الابنة بكراستها ، وقدمتها لى لأتفرج على ما فيها من رسوم ، وهى تقول :

ـ هذه صور قديمة أخذتها منذ زمن بعيد ..



وقال المراكبى :
ـ تروح فين انت بخلجاتك الجطمة ياشحات فى الاكابر . احنا فجرا يابوى خلينـا فى حالنا ..

وتصفحت الكراسة .. رأيت وجوه صينيين وهنود .. وفجأة ، هتفت :

ـ هذا تشرشل ..

فابتسمت قائلة :

ـ كان فى الثلاثين من عمره عندما جلس أمامى لأرسم له هـذه الصورة ..

قلت لها :

ـ ولكن ملامحه هى .. هى ..

فضحكت قائلة :

ـ انه .. بولدج

وتقدم منا سفرجى فى ملابسه البيضاء الانيقة ، وحول وسطه حزام أحمر .. كاننا فى وتتر بالاس وقال وهو ينحنى فى أدب :

ـ حضرة المهندس .. بيقول لحضرتك تحب تتفرج على القرية ؟

ورحبت على الفور ، واستاذنت من السيدتين ، وتبعته الى الخارج ، بيث وجدنا المهندس يقف بعباءته الخضراء ، وسط العمال ، أمام المبنى الذى يحتوى على « موتور » الكهرباء ..

كان المهندس يصدر أوامره بتشديد الحراسة ، فالهجوم محتمل ومتوقع بعد انذار المرأة الاعرابية ، والعمال يريدون العودة فى أسرع وقت الى الاقصر ، لان أحدا منهم لا يرضى البقاء ليلا فى القرية ..

وصاح المهندس فى كلمات شجاعة بنفس الصوت الغـارق فى الملـل :

ـ أنا ح أنام الليلة فى القرية . وفيه ستات عواجيز حيباتوا هنا .. محدش خايف من حاجة .. المهم ان الحراسة تكون كويسة ..

وعاودنى الشعور بالخطر الذى أحسست به فى القاهرة عندما كلفنى مدير التحقيقات بهذا التحقيق .. وكان الخطر واضحا فقد سمعت باذنى المرأة وهى تهدد بنسف الموتور .. والجديد فى الامر انى كنت اتوقع الخطر من أهالى الجبل ، ولم يدر بذهنى أن هنـاك امرأة تلبس عمامة وتتكلم الفرنسية التى تنم عن أصلها الفرنسى .. هى التى ستكون مصدر الخطر ..

وجاءنى المهندس وأخذنى من يدى ، ومضى بى يشق طريقه بين المبانى ..

سالته :

ــ مين الست اللى كانت ثايرة ضد الكهربا والموتور ؟

فاجاب فى عصبية :

ــ ست فرنساوية عايشة هنا فى الجبل •• وبتعمل صلات مع أهل الجبل بتعالجهم ••

فقاطعته وتذكرت الرجل المصاب بالتهاب فى عينيه :

ــ طبيبة عيون ••

ــ أبدا •• دى هاربة من فرنسا • مش عايزة تعيش وسط المدنية •• وبتقول انها بتحب الناس البدائيين ، وعايزاهم يفضلوا بدائيين •• علشان ما يتلوثوش بالفساد •• بتعلم نسوان الجبل التطريز ، لانهم شاطرين وهما اللى عملولها العباية بتاعتها وقدموها هدية لها ••

ــ وتفتكر هى اللى ورا الحريقة وقلب الترولل ؟

ــ هى ضد المشروع كله • ما أقدرش اتهمها بحاجة • معنديش دليل ضدها ••

واقبلنا على ساحة كبيرة وسط المبانى •• فسكت المهندس وكانه يتهيأ نفسيا لتغيير موضوع الحديث ••

ــ هنا ساحة القرية •• تجد فيها الجامع والمدرسة ودار العمدة ••

ثم قال •• وأشار بيده :

ــ وهناك السوق •• والخان ••

وقاطعته متسائلا :

ــ قصدك ايه •• بالخان ؟••

فنظر الى فى كبرياء وقال :

ــ احنا فى الشرق •• منعرفش اللوكاندات •• انما نعرف الخان اللى بينزل فيه التجار اثناء السفر • وانا شخصيا احب كلمة خان ، وافضلها على كلمة لوكاندة ••

وصمت فجاة •• وسرح ببصره الى الافق •• ثم أمسك بيدى فى انفعال وهتف :

ــ اوه •• ياربى •• أو •• لالا •• شوف البنت اللى ماشية هناك،

بتعمل صورة جميلة على جدار الجامع •• بس يا خسارة كان لازم تلبس فستان برتقالى علشان الالوان تنسجم مع بعض ••

وكانت فتاة حافية تلبس « ملس » الفلاحات الاسود تسير عن بعد ولم أفهم ماذا يعنيه المهندس بكلامه عن الالوان •• ففضلت السكوت ••

وامضينا ثلاث ساعات ، نتجول فى القرية ••

ودخلنا دار العمدة ، وشاهدت حجرة مكتبه ، وحمامه الخاص ، والتواليت الافرنجى ذا السيفون ، وحجرات نوم الضيوف

كانت دارا فخمة ، لا اظن أن أى عمدة يحلم باجمل منها •

وفى الجامع ، شرح لى المهندس مساقط الضوء وكيف تنسجم مع خطوط البناء وحركات المصلين •• كانهم لن يصلوا بل سيرقصون باليه على مسرح حديث الاضاءة ••

وفى المدرسة ، وقف المهندس أمام بناء صغير ، وقال لى بالفرنسية :

ــ هذه .. هى الكنيسة .. ثم استدرك قائلا :

ــ اقصد الجامع ..

وفتح يديه فى الهواء ، فانفرجت عباءته ، واصبح له كيان ضخم ، وقال فى تأثر :

ــ وجود هذا البناء .. يثير الرهبة فى نفس الطالب .. كل المدارس الانجليزية ، لابد أن يكون فيها كنيسة .. وفى مكان بارز .. علشان تكون رمز للتلاميذ ..

وكنت أفكر فى التطور الخطير الذى سيحدث فى حياة اهل الجبل ، ونحن نشاهد احدى الدور المقامة لهم

وسالنى المهندس :

ــ لاحظت حاجة فى البيت ده ؟ ..

فاجبته :

ــ لاحظت أنه بيت جميل ..

فهز رأسه وقال :

ــ ده •• مكيف بالهواء البارد والساخن ••

ولم أصدقه .. ولكنه اشار الى الجدران وقال :

ـ الجدران دى سميكة ، تحفظ الحرارة داخل البيت فى الشتاء .. وتحفظ الرطوبة فى الصيف .. وكمان القبة اللى فى سقف الحجرة تساعد على تكييف الهواء ، لانها بتعكس اشعة الشمس .. القبة دى بيستعملوها الاهالى فى اسوان ، لكن مايعرفوهاش هنا .. ولا فيش مهندس فى الدنيا يقدر يبنى القبة بالطريقة دى .. لكن أهالى أسوان تحدوا المهندسين ، وعرفوا يبنوها .. علشان كده جبت عمال مخصوصين من أسوان وعملوا سقوف القرية كلها بالقبب ..

ومررنا بحظيرة كبيرة للمواشي والدواب . يجمع فيها الاهالى حيواناتهم ليلا ، حتى لا تنام معهم فى نفس المكان الذى يرقدون فيه ..

وقال المهندس مشيرا الى الحظيرة :

ـ دا الجاراج بتاع القرية .. كل واحد يسوق فى آخر الليل حمارته او جاموسته للجاراج ويسيبها ، ويروح ينام فى بيته النضيف

وكنت الهث من التعب والجوع ، بعد ان فرغنا من جولتنا ، والمهندس يزداد نشاطا وحيوية كلما مر باحدى المنشآت التى صممها واشرف على بنائها .. وكان يشعر بالفخر والزهو ، لانه استطاع ان يبنى مدينة . ولانه سيغير حياة ناس بدائيين بابنيته التى اقامها ..

وعدنا الى بيت المهندس ، وجلسنا حول مائدة انيقة وتناولنا الطعام مع السيدتين العجوزتين ، ولم يكف المهندس عن حديثه عن القرية ، وكيف اثارت اهتمام مجلات الهندسة والفنون فى العالم كله .. كان يقول فى حسرة :

ـ انهم يتحدثون عنى فى العالم .. ولا احد يهتم بمشروعى فى مصر . ماذا اصنع يا ربى . لو اهتموا بمشروعى لتحولت مصر فى عشر سنوات الى جنة ..

ولما فرغنا من الغداء ، كان همى الاول هو ان اتحدث مع المهندس عن مهمتى .. لم اكن اريد منه ، اكثر من ان يرسل معى رجلا من رجاله الى اهل الجبل ، لاسأل عن حسين على مقدم الشكوى وابدا التحقيق بسؤاله ..

وما كاد المهندس يسمع عن رغبتى ، حتى انتفض قائلا :

ـ مستحيل يا عزيزى ابعت معاك واحد من هنا .. بمجرد مايشوفوك مع واحد من رجالتنا ، حياتك تبقى معرضة للخطر

فقلت له :

ـ لازم اروح هناك ..

ـ روح بنفسك .. اضمن لحياتك ..

ـ اروح ازاى ..

ففكر طويلا ثم قال فى صوت خفيض :

ـ صحيح .. المسافة طويلة ، وانت محتاج لعربية .. لكنهم عارفين عربياتنا انصحك تروح فى عربية تابعة لمصلحة الاثار .. على كل حال احنا العصر .. استنى هنا لبكرة الصبح ونشوف طريقة تروح بيها ..

وانزعجت لفكرة البقاء .. وتذكرت ملابسى التى نسيتها عند صديقى وكيل النيابة ، فاحتججت بأنى بغير ملابس ، واننى اريد أن اعود الى الاقصر ..

فنادى المهندس على « السفرجى » ، وامره باعداد اللورى لينقلنى الى الشاطىء ..

وفوجئت بالسفرجى يقول :

ـ اللورى متعطل ياسعادة البيه ..

وصاح المهندس :

ـ برافو . عظيم . اذن تبات الليلة معانا . ونلعب شطرنج مع بعض ..

وشعرت بغصة فى حلقى .. وبلعت ريقى لاستجمع شجاعتى . كنت اعرف ان القرية معرضة للهجوم فى هذه الليلة .. الهجوم الذى توعدت به المرأة الفرنسية ..

ولم أستطع الكلام . خفت أن يفضح صوتى ما احس به من خوف وفزع ..

وبعد لحظات كنت أجلس مع المهندس وامامنا رقعة شطرنج وفى اثناء اللعب ، روى لى المهندس اغرب قصة سمعتها فى حياتى عن اهل الجبل ..

كان يرويها ونحن ننتظر الهجوم الليلى ..

الفصل الثالث

كنت استمع الى المهندس بشغف كبير وهو يروى لى عن معاركه مع عمدة الجبل ، وينقل فى نفس الوقت قطع الشطرنج على الرقعة بيننا

ونقل المهندس وزيره وقال لى بصوت ملىء بالتحدى :

ـ كش الملك ..

وغاظنى صوته ، ودفعنى الغيظ الى احساس مفاجىء بان اتشكك فى حقيقة ما يقول لى .. تغلبت على طبيعة المحقق الذى يستريب فى كل ما يرى ويسمع ، ولكنى لم افصح له عن التحول المفاجىء الذى شعرت به نحوه .. تركته يسترسل فى قصته ، وانا استمع اليها .. لا على انها حقيقة . ولكن مجرد وجهة نظر . رواية يرويها خصم عن اعدائه

واكمل المهندس قصته فى اسهاب .. كان يرويها بتفاصيل دقيقة، كانه يروى فيلما شاهده أو يلخص لى رواية قرأها .. كان يحكى دون ان يخطر بباله انى اشك فى ان خياله يشطح ، وانه وبما كان من هواة تاليف القصص ..

***

كانت المعركة بين المهندس وعمدة أهل الجبـــل مريرة طويلة وقف الخصمان فيها يناضلان فى غير باس . احدهما تعلم الفن فى فرنســا ويتكلم اللغة الفرنسية بطلاقة ، والثانى رجل عجوز ماكر ، يحـارب بالفطرة والحكمة التى ورثها عن اجداده الذين لم يغادروا الجبـل أبدا ..

وانتصر المهندس فاستطاع بناء القرية النموذجية ، ضد مقاومة اهل الجبل . واعجب مافى انتصار المهندس ، هو ان الذين بنوا القرية النموذجية هم اهل الجبل انفسهم

وانتصر عمدة الجبل ، لانه قاد الاهالى فى حركة مقاومة ضد النزول من الجبل الى القرية ، وترك القرية مهجورة ، يسكنها خفراء وحراس ،

والمهندس وضيوفه الخائفون ، وبقية الدور خاوية تقيم فيهـــا الاشباح ، الجامع بغير مصلين والمدرسة بغير تلاميذ ، ودار العمدية بلا عمدة ..

واعجب مافى انتصار العمدة ، انه ترك اهل الجبل يعملون فى بنـاء القرية ليحصلوا على يوميتهم من القروش القليلة آخر النهار .. حتى اذا فرغوا من بناء القرية ، واخذوا نقود البناء رفضوا السكنى فيها

ودامت المعركة بين المهندس والعمدة لسنوات . المهندس يستنجد بالبوليس .. ويبلغه كل ليلة عن حادث ارتكبه أهل الجبل ضـد السـياح ..

ويروى المهندس للبوليس كيف ان سمعة البلاد ضــاعت بسبب اعمال النصب التى يرتكبها اهل الجبل ، وكيف ان ازاحة هؤلاء الاهالى من مكانهم ، يتوقف عليه مستقبل البلاد ، وسمعتها الدولية ..

ان المهندس يسمع عن ضجة تقوم فى « ونتر بالاس » بين يوم وآخر. عندما يعود رجل محترم ، سفير اجنبى ، او سائح امريكى مليونير الى الفندق ، ويختلى بأحد علماء الاثار فى ركن قصى ، ثم يقول له هامسا :

ـ عندى لك مفاجأة مدهشة ..

ويتلفت السائح المليونير حوله ، ثم يهمس فى أذن عالم الاثار :

ـ اليوم وانا أشاهد الاثار تقدم منى أحد الاهالى وأبرز لى من جيبه خفية تمثالا فرعونيا حقيقيا .. انهم يسرقون الآثار بمنتهى البساطة .. وساومت الرجل . حتى استطعت أن اشتريه منه بثمن رخيص جدا

ويسأل عالم الاثار :

ـ بكم اشتريته ؟

فيجيب الرجل :

ـ دفعت فيه مائتى دولار . تصور ؟ . اثر فرعونى مصنوع منـذ آلاف السنين ثمنه مائتا دولار فقط .. ان متحف المتروبوليتـان فى نيويورك يشتريه منى بربع مليون دولار .

ويطلب العالم الاثرى رؤية التمثال ، ويتلفت السائح من جديد ، ويخرجه من جيبه فى حذر شديد ..

وسرعان ما يصفر وجهه ، وهو يسمع عالم الاثار ، يقول له فى سخرية ممزوجة بالشفقة ، أن التمثال مقلد ، وانه من صناعة اهل

الجبل . يصنعونه بالعشرات فى اليوم الواحد

. "ويثور السائح ، ويزأر كالضحية المجروحة ، ولكنه يتكتم فى النهاية الفضيحة التى لحقت به .. فقد هزأ أحد الاهالى البسطاء بذكائه وثقافته ، واخذ منه ثروة لا يستطيع ان يطالب بها أمام البوليس ...

اما المهندس فكان لايتكتم الفضيحة ، ويبلغها للبوليس ، ويكتب التقارير عنها للمسئولين ، متوعدا ومهددا بسمعة البلد بالضياع ..

وفى الجبل يجلس العمدة ورجاله ، يتندرون بغضب المهندس وبما حصلوا عليه من مال من السياح ، ولكنهم لا يفكرون ابدا فى اقامة مسكن غير الكهوف التى يرقدون فيها . لا كوخ ، ولا « خص » ولا عشة ، او بيت من الطين ، ان الكهوف هى المداخل الطبيعية للقبور الفرعونية التى لم تكتشف بعد . وكل اسرة لا تفكر فى انها تسكن فى كهف بل هى تقيم على باب كنز . على باب الجنة

وعندما يتقدم الليل ، تجتمع الاسرة ، رجالا ونساء واطفالا لينقبوا داخل الكهف ، يكحتون شهورا وسنينا ، بمعاولهم البدائية ضاربين فى الصخر الصلد ، مغامرين بحياتهم ، متحدين الطبيعة فى صورة الحجارة الضخمة التى تقف بينهم وبين مايريدون . متحدين لعنة الفراعنة التى يفسرون بها قتلاهم الذين يموتون تحت الحجارة التى تسقط فوقهم اثناء الكحت متحدين مكر الفراعنة ودهاءهم فى حماية قبورهم .. بئر بلا قرار ، او هاوية سحيقة تنشق فجأة أمام من يضرب الصخر او ارض زلقة تنحدر الى جنب سحيق ، او سقف ينهار على كل من يحاول اقتحام المقبرة ..

انهم متمسكون بمكانهم ، يرفضون تحسين حياتهم عن اى طريق.. لان احلامهم كبيرة ، انهم يحلمون بالذهب الكثير . لا بالقليل الذى يرضى به الناس العاديون ، أصحاب الاحلام العادية ..

وكلما احس العمدة باليأس يدخل فى نفوس الرجال ابتكر وسيلة لإبقائهم فى الجبل ، حتى لا يهجرونه

وهناك اكثر من سبب يدفع الرجال الى هجرة الجبل .. عندما يكحتون . ويكحتون . لسنين طويلة ، دون أن يجدوا شيئا

عندئذ يرتفع صوت احد الرجال اليائسين :

ــ دهب المساخيط مرصود .. ماحوالهش الا الموت ، وتجطيع

الايدين .. مكتوب علينا الفجر يارجالة ، مالناش منه خلاص

وفى صباح يوم ، تستيقظ اسرة هذا الرجل اليائس فتجده قد اختفى ..

يسافر الرجل ماشيا على قدميه ، او راكبا فى مركب نيلى الى الشمال ، حتى يستقر فى مدينة ، ويعمل فى بناء البيوت والعمارات..

ويتزوج الرجل امراة اخرى ، وينسى اهل الجبل وينسى زوجته الاولى واولاده منها الى الابد ..

ويقاوم العمدة هذا الياس ، بين وقت وآخر ، فيجمع اهل الجبل ويقول لهم :

ــ مفيش ليلة يا رجالة . اخطف فيها نوم ، الا واشوف المنام بعينيه . خدنى الشيخ فى دراعه ، وطلع بى الجبل وعدينا فى العتمة ، والشيخ بيحط فى ودانى كلام زى العسل يارجاله ولمس بايده الجبل. وانفتح جصادى نور . وشفت الكنز دهب فى جدور . وجدور على صوانى . وصوانى عليها اكل . وشفت يارجالة . نسوان ع الحيط . وبط . وغوازى . وجيت امد ايدى . زعج الشيخ . وجال . وزعه ع الرجالة

ويلتهب حماس القبيلة وهم يسمعون حلم عمدتهم العجوز ويبدو لهم الكنز قريب المنال ، ما هى الا ضربة او ضربتان بالفاس فى المكان الذى اشار اليه الشيخ ، وتنفتح طاقة الكنز

وتستعيد النفوس التى أصابها الياس تماسكها ، والذين يفكرون فى الهجرة يعدلون عن قرارهم ، والذين هجروا الجبل فعلا ، وذهبوا للعمل فى المبانى فى المدن القريبة والبعيدة ، وجاءوا لزيارة اهلهم لفترة من الوقت ، يسمعون كلام العمدة ، فيمدون فترة اقامتهم ، وتجتمع النساء لتتشاور فى مصير الكنز ، بعد ان يحصلوا عليه ..

تقول واحدة من النسوة :

ــ ح نشترى بيت على الشط ، وفدانين نزرعهم ونعيش عيشة الاشراف

وتقول ثانية :

ــ ح ناكل اللحم ، ونلبس الحرير ، وننسلوا عيال شداد

وتقول ثالثة :

ـ اخويا كيفه اروح معاه سيوط . اخدم على مرته . دلوقيت ييجى معاها ياخد نصيبه م الكنز .

وتتنهد امراة عجوز وتقول :

ـ اللى يحصدك يارب مايخبش ..

ويسرى الكلام فى دماء اهل الجبل ويختلط بانفاسهم ولحمهم وعظامهم ، ويتحول منام العمدة الى يقين جارف ..

وفى فجر يوم ، وقد فرغ عمدة القبيلة من صلاة الفجر . ياتى اليه احد الرجال لاهثا ، ويقول له :

ـ لجينا الكنز .. الفاس بترن .

وينهض العمدة من قعاده ، ويردد فى انفعال :

ـ لجيتوا الكنز . الفاس بترن ؟

فيخبره الرجل بما حدث ..

ـ جمدنا ندج . وندج . والحجر مايلين . ندج وندج ترد الفاس فى ايدينا . لما بطلنا والرجالة همدت . وادى عاشر ليلة . وشج الفجر ، واحنا واجفين جصاد بعض مانيسمعش لنا نطج . جامت الرجالة تصلى . وانا خدت الفاس ، وجمدت اضرب، بيها . ملت بالفاس جيمة شبرين ودجيت . لجيت الفاس بترن . ودجيت . لجيت الفاس بترن . انا اتجنيت .

فيمسح العمدة على وجهه ويقول فى اشراق :

ـ دا الكنز ياراجل ..

ويجمع العمدة اهل الجبل ويحدثهم :

ـ انا عندى كلام لكم وانتم كده جمعية . من يوم ربنا مانشانا.هنا .. واحنا مستنظرين .. مستنظرين الحجر ينفتح . والمخبى يبان .. وكل ماتطلع علينا شمس . يتكتر عيالنا ، وتجل اللجمة فى ايدينا . ويمضى الحجر ماينفتحش .

وترتفع صيحات الرجال والنساء :

ـ ايوه والله يا عمدة ..

ويستانف العمدة كلامه :

ـ الفجر اليوم . رنت الفاس فى الصخر . وظهر الكنز وجصدى م الجمعية دى . تتفج . تتصافى الجلوب . مابناش صغير . ولا كبير .

اليوم يا رجاله كمثل يوم الحساب لا عركة تجرى ولا طمع يعمينا .. الكل ياخد . والكنز يتوزع بعدل الله

وتصيح امراة :

ـ غرضى فى خلخال يا عمدة .

وتصيح اخرى :

ـ وانا غرضى فى كردان ..

فيرتفع صوت العمدة فوق اصواتهم :

ـ الكنز يتوزع بعدل الله . النهار طلع . والسياح زمانهم جايين . الليلة الجاية بعد العشا . تتجمع الرجالة . والنسوان يلموا عيالهم . وتتمموا الكحت باذن الله ..

ويقضى اهل الجبل نهارهم ، مع السياح وعلماء الاثار ؛ وهم يكتمون انفعالهم الشديد ، حتى اذا هبط الليل ، وعاد الغرباء الى الشاطىء الشرقى . هجموا بمعاولهم يضربون الجبل ضربات محمومة .. وهم مطمئنون تماما الى ان احدا لا يعرف سرهم ..

ويصرخ احد الرجال فجاة :

ـ الحجر ح يجع .

فيتراجع بقية الرجال . ويتقدم واحد منهم يضرب بمعوله الضربة الاخيرة ، ويقع الحجر ، ويثور الغبار ، وتهرول النساء الواقفات عند مدخل الكهف الى الداخل ليشهدن فتح الكنز ..

ويرتفع صوت العمدة :

ـ فتحوا عنيكوا يانسوان . البير بان . ويلقى بحجر صغير فى هوة سحيقة . فلا يسمع للحجر صوت . انه بئر بلا قرار

ويامر العمدة :

ـ جربوا النور ..

ويدخل الرجال تتقدمهم مصابيح الغاز الى داخل المقبرة ، وهم يسيرون فى حذر شديد بحذاء البئر . يتحسسون خطواتهم شبرا شبرا ..

ويردد احد الكهول ممن لا يستطيع التقدم :

ـ نصيبى .. نصيبى يارجالة

ويصيح رجل من الداخل فى فرح :

ـ الرسومات ع الحيطة ياعمدة ..
ويصيح آخر :
ـ دى مجبرة اشراف ..
وتهتف النساء الواقفات وراء الرجال :
ـ وين الكنز يا عمدة . لجيتو الكنز . خلينا نعدى .
ويصل العمدة الى داخل المقبرة ، ويرفع المصباح ملوحا به فى كل مكان ، باحثا عن القدور المملوءة بالذهب ، والصوانى المحملة بالطعام .
ويدرك بخبرته السابقة ، وتجاربه الماضية ان المقبرة مسروقة ، سبقه اليها اجداده من نفس القبيلة واستولوا على مافيها من كنوز
ويترك العمدة مكانه ، ويتجه الى الخارج وهو يجيب بصوت حزين على الاسئلة التى يمطرونه بها :
ـ مالجيتش دهب .. مالجيتش مساخيط .. المجبرة مسروجة
ولا يصدق احد كلام العمدة . الرجال يضربون الحائط فى اى مكان بمعاولهم . يضربون فى جنون باحثين عن حجرة سرية داخل المقبرة
والنساء مصممات على ان يرين بأعينهن ان الذهب غير موجود
ويذهب العمدة بعيدا ؛ وقد طغى عليه حزن قاتل ، ويهبط الجبل ، ويجلس وحيدا على الارض ، يفكر فى المسئوليات التى سيواجهها عندما ترتفع شمس اليوم التالى
ويصاب اهل الجبل بنكسة من اليأس الحزين ..
وفى الصباح يتغير حديث النساء ..
واحدة تقول :
ـ ابو سعد انهد الجبل عليه .. وسعداوى وجع فى بير ..ورضوان خطفته المساخيط . ولا حصلوش حاجة . لا دهب . ولا جواهر .
مافيش ورا الكحت الا الموت
وتقول ثانية :
ـ الجبل غدار بيجصف العمر ..
والمراة التى كانت ترفض الذهاب الى اسيوط لتخدم زوجة اخيها تذعن وترضخ وتفكر فى السفر الى اسيوط ..
اما الرجال فتسرى بينهم نغمة جديدة من الكلام ..
يقف رجل وسطهم ويقول :

ـ كيف يا رجالة مكتوب علينا الفجر . وزج الراجل فى دراعه .
طول مافى ايدى فاس . انا يارجالة محبطلش . الرزج مايعصاش ع الراجل الشديد . انا نازل بنايات المهندس
ويقتنع الرجال بما يسمعونه . فيمضون الى مهندس القرية النموذجية ؛ ويقبلون على العمل فى بناء القرية التى لا يريدون سكناها
كل ما يفكرون فيه ، هو القروش القليلة ؛ التى يقبضونها فى آخر النهار

***

ويدرك المهندس من اقبال اهل الجبل على البناء ، ان مقبرة جديدة قد اكتشفت .. وانها كانت مسروقة ، فلم يجدوا فيها شيئا ..
ويكتب تقريرا عاجلا ، منددا بضياع آثار مصر الفرعونية
وتسرى الاشاعة بين علماء الاثار . اهالى الجبل قد اكتشفوا مقبرة جديدة . اين ؟ لا احد يدرى . ان مئات المقابر مازالت مخبأة مجهولة فى جوف الجبل . انهم واثقون من ذلك ولكن كيف يصلون الى هذه المقابر ، بنفس السرعة التى يصل بها الاهالى . كيف يتغلب منام العمدة ، على كتب الآثار ..
ان الشيخ الذى يأتى للعمدة فى المنام ، ولى من اولياء الله له مقام صغير عند سفح الجبل . تتبرك به نساء القرية ، ويستلهمه الرجال فى عملهم ..
ويجلس علماء الآثار ، يتداولون ويتناقشون اسطورة هذا الولى ذو الكرامات ويؤكد واحد منهم قائلا ، انه ليس وليا من أولياء الله . لقد كان احد جدود هذه القبيلة . عاش منذ اكثر من مائة عام ، وكان بارعا فى اكتشاف المقابر الفرعونية ، يشم مكانها بانفه ، واذا ضرب بفاسه فلابد أن يصل الى مقبرة ولابد أن يجد شيئا يبيعه للمهربين
والمهربون كثيرون . بينهم العلماء والسياح . العلماء يأتون الى الجبل ليبحثوا عن الكنوز من اجل معرفة الحقيقة والتاريخ ولكنهم بشر ، لا يستطيعون مواجهة الذهب دون ان يفكروا فى شىء آخر غير العلم . الذهب يثير طمع الانسان ويحول العالم الأثرى الى مهرب ، ويحول الباحث المنقب الى لص ، ويحول السائح الى مغامر .. حتى الفنان يرى التمثال الفرعونى فيتأمل ما فيه من فن لحظات ؛ ثم يفكر

في قيمة الذهب المصنوع منه التمثال لساعات طوال ..

كان ولى الله فى حياته ، يجد دائما من يبيعه الآثار التى يحصل عليها .. ثم اختفى فجاة ..

وسرت اشاعة فى الجبل .. انه كان يضرب بفاسه ليفتح احد المقابر ، عندما انشق الجبل ، وانبعثت من داخله اضواء ساحرة ، وتقدم الرجل الى مصدر الضوء ، فراى فى المقبرة فراعنة قد عادوا الى الحياة .. الملك الجالس على عرشه والى جانبه حاشيته ، وامامه الراقصون والراقصات ، والموسيقيون والمنشدون ، وعلى الموائد طعام طازج شهى .. كان البعث قد احيا اهل المقبرة واستقبلوا الرجل مرحبين ، واستضافوه ليعيش معهم فى حياتهم الثانية بعد البعث .. ولم يعد الرجل من المقبرة ولا يعرف احد حتى اليوم مكانها ، واقاموا له ضريحا ، لانه ولى من اولياء الله .. حقق المعجزات والكرامات ..

ويقول عالم الآثار .. انه لا يصدق هذه الاشاعة ، لانها خرافة .. وهو يعتقد ان الرجل اختفى لانه عثر على اثر نفيس فهرب به بنفسه ، وباعه بثروة طائلة ، واصبح واحدا من الاغنياء فى مصر .. او ربما فى الخارج ..

اما اهل الجبل فهم متمسكون بقصتهم .. ويؤمنون بجدهم الاكبر ولى الله ، الذى سينقذهم من الفقر يوما ، عندما ياتى لواحد منهم فى المنام ويرشده الى كنز كبير ..

ولما عجز المهندس عن اقناع اهل الجبل بسكنى قريته النموذجية وان يتخلوا عن احلامهم فى الكنز .. لجا الى اسلوب التفرقة بينهم .. اختار واحدا منهم ، واعطاه مالا اكثر من غيره ، وجعل منه مقاولا للانفار .. اذا ارادوا ان يعملوا فى البنايات ، جاءوا عن طريق هذا المقاول ، الذى يتقاسم معهم يوميتهم ، ومع مرور الوقت ، اثرى المقاول ، فبدأ يحرض اهله على النزوح الى القرية النموذجية والسكنى فيها ، وراوده حلم العمودية فى القرية النموذجية ..

كان المقاول يقف بين اهل الجبل قائلا :

ـ كنز .. يا مجانين .. كان جدودنا اشطر .. راجل ورا راجل منكم يموت .. والاثارات زى ماهية .. حجارة .. مابجتش تخبى

كنوز .. خطفوها من زمان .. هو فى الجبل وزج .. انا كبرت هنا ، وطول عمرى اسمع الكلام ده .. ابويا تحت الجبل بترين .. والترين بجو عشرة .. سرداب طويل .. ووجع الجبل عليه ، جم العساكر ياخدوه مجعدش .. مات ..

فيهز العمدة راسه ويقول :

ـ ومن يومها .. وانت بتترعب م الجبل .. والاثارات ..

ثم ينظر فى الرجال من حوله ويتهدج صوته قائلا :

ـ راجل ورا راجل بيموت ماحدش منا فات اهله .. احنا جاعدين هنا ، لما تفرج علينا كلتنا ..

واصبح العداء سافرا بين المقاول والعمدة ، وانضم الاهالى الى عمدتهم الفقير .. وانضم المقاول الى المهندس وتحول الى واحد من اتباعه ، وبقيت القرية بلا سكان ، وظلت المعركة مستمرة ..



الفصل الرابع

انقضى الليـل ، ولم يقع الهجـوم المرتقب على القرية .. وكان المهندس بعد أن فرغ من قصته عن اهل الجبل قد ذهب ونام على سرير « عنجريب » فى حجرة ضيقة ، ليس فيها غير مقعد ، ومرآة مثبتة بمسمار فى الحائط ، اما انا فقد امضيت ساعات الليـل الاخيرة ، وكل حواسى مركزة فى اذنى ، انظر واتنفس وافكر باذنى !..

ولم اسمع اى صوت .. لا صياح ولا همس ، ولا نباح كلاب ولا اى شىء .. كان الليل اخرس لا يفصـح عما فى داخله ، انه صمت قبور الفراعنة ، صمت موتى .. ماتوا منذ آلاف السنين

وطلع الفجر ، فتبينت مع ضيائه الاولى انى مشاول فوق مقعدى ، لا افعل شيئا ، واحسست انى قضيت وقتا طويلا . وانا كالجماد .. لا يدور فى راسى سوى الفراغ ، ومضت ساعة اخرى ، انتشر فيها الضوء الداخل من النافذة .. وازداد احساسى بالاجهاد والتعب ، وقررت ان احسم موقفى ، واقرر ماذا انا فاعل اليوم ، هل اعود الى الاقصر .. ام اصمم على الذهاب الى اهل الجبل مجازفا بحياتى ، وقبل ان استقر على راى ، هرب عقلى من التفكير فى المشـكلة .. فأغفيت ونمت ..

واستيقظت فجاة على صوت اقدام تروح وتجىء خارج الحجرة ، فتحت عينى ، فوجدتنى ما زلت جالسا على المقعد ، وامامى الشطرنج الذى كنت العب به مع المهندس ، والسرير « العنجريب » لم امسه والاغطية فوقه مرتبة نظيفة ، ومسحت وجهى بكفى ، وقمت وانا اشعر بمفاصلى تتكسر وخرجت من الحجرة ..

ورايت المهنـدس يقف نشيطا وسط حوش البيت ، وقد تدثر بعباءته الخضراء .. وحيانى ثم قال ضاحكا :

ـ اللورى جاهز .. علشان يوصلك للمركب ..

فقلت له على الفور :

ـ اللورى حيوصلنى الجبل ..

فنظر الى طويلا فى غير فهم ثم قال

ـ انا قلت لك دا خطر عليك ..

فاجبته فى عصبية :

ـ خطر .. خطر .. زى بعضه ..

كان شىء فى داخلى يرغمنى على الكلام .. هل فكر عقلى واتخـذ قرارا وانا نائم لست أدرى ، كل ما اعرفه ، انى الححت فى عنـاد على الذهاب فورا الى الجبل ..

وهـز المهنـدس كتفه يائسا ، ونادى سـائق اللورى فجاء نفس السائق الذى اوصلنى الى القرية ، ونظر الى فى حيرة .. وقال له المهندس متسـائلا :

ـ توصل البيه لعمـدة الجرنة ؟ ..

وبان التردد على وجه السـائق ..

فصحت فى ضـيق :

ـ انا رايح ضرورى .. حتى لو مشيت لحد هناك ..

كنت ثائرا بلا مبرر .. ثورة من فقد اعصابه ، ويريد أن يواجـه باى ثمن هـذا الخطر الذى يخيفه ويفزعه ، لانه لم يعـد يطيق الانتظار ..

وقال المهندس للسائق فى هدوء :

ـ اسمع يا سيد انت توصل البيه قريب من الجرنة ، وتستناه .. ومتنزلش من اللورى لحـد ما يرجـع .. انت فاهم متنزلش من اللورى ..

فاحتج السائق :

ـ كيف انزل يا سـعادة البيه ..

كان الرجل يحتج بصوته ، وباشارات يديه ، ويتحرك فى نفس الوقت نحو اللورى لنقلى الى الجبل ..

***

اندفع اللورى فى طريق وعر ، يرتفع فوق هضبة صخرية نبتت فيها الحشائش فى غير نظام ، والسائق صامت لا يدرى ماذا يقول ، ولعله كان يفكر فى عدم اكتراثه بى ، عندما رآنى لاول مرة .. وظن

انى احد الموظفين الصغار الذين جاءوا لزيارة معاون القرية النموذجية ..

وقلت للسائق فجاة :

ـ انا سمعتك امبارح بتتكلم مع الراجل اللى كان راكب معانا عن الست الفرنساوية ..

فاجاب فى وجوم دون ان يلتفت الى :

ـ ايوه يا سعادة البيه ..

وضغط على البنزين ، فازداد اندفاع اللورى ، واشتد ارتجاجه كانه يتمنى أن يقلب بنا اللورى ، حتى لا نصل الى الجبل ، أو يجاذبنى الحديث حول الست الفرنساوية ..

وصممت على سؤاله :

ـ كنت بتقول ان الرجاله بيروحوا فى بيتها بالليل .. قصدك ايه ؟

وسكت الرجل ولم يجب ، واطلق نفير اللورى ، دون أن يعترض طريقنا احد ..

وصحت فيه :

ـ هيه .. قصدك ايه ؟ ..

ـ ولا حاجة يا سعادة البيه ..

كان المسكين فى مأزق ، وكنت عنيدا كالطفل فى سؤالى ..

والححت عليه :

ـ الرجالة بيعملوا ايه فى بيت الست الفرنساوية بالليل ؟

ـ معرفش يا بيه ..

ـ بيهربوا الآثارات عندها ..

والتفت الرجل الى رغما عنه ، حتى كاد اللورى يخرج عن طريقه ، ونظر الى فى فزع ، وهتف :

ـ دا كلام بيجولوه .. ما اعرف ان كان صح والا كذب

وشعرت بالارتياح .. اذن فهناك اشاعة على الاقل ، حول حقيقة هذه المراة الفرنسية ، انها اشاعة تفسر شذوذها ، وانا اشك كثيرا فى الشذوذ .. ولا ارتاح له ، واتوقع دائما شيئا وراءه .. انى على استعداد الان لتقبل كل التصرفات الشاذة لهذه المراة ، نفورها من

المبانى النموذجية ، وكراهيتها للكهرباء ودفاعها عن الطبيعة البدائية.. ورغبتها فى الاحتفاظ بالاهالى كما هم ، وملابسها الغريبة ، كل هذا يخفى وراءه مصلحة واضحة ، هى الآثار التى تحصل عليها من الاهالى ، وتهربها الى الخارج ، انى لا املك دليلا واحدا عليها ، ولم اسمع اتهاما مباشرا واضحا ضدها .. ولكن عقلى يرتاح لهذا التفسير .. ولا يرضى بانها مجرد فرنسية ضاقت بمدينة باريس ، واحبت الجبل فجاءت لتعيش فيه بعيدا عن فساد الحضارة وزيفها ..

ربما احبت الجبل فعلا .. احبت رجال الجبل .. ربما كانت تستمتع برجولتهم فى الليل ، انى ارتاح لهذه الصورة ايضا فرنسية شقراء ، بضة ، ترتدى ملابس الاعرابيات ، وعمامة مراكشية ، وتعطى جسدها لرجال فحول .. لقاء كنوزالفراعنة . انرجال الجبل لا يؤثرون ابدا ، الفرص النادرة التى يحصلون فيها على أثر فرعونى ، لا تتيح لهم الحصول على المال الوفير .. انها تتيح لهم فقط الحصول على جسد فرنسية شقراء ..

واعجبنى هذا المنطق

وسالت السائق من جديد :

ـ اظن رجالة الجبل بيحبوا الست الفرنساوية ..

وابتسم السائق وبدا عليه الارتباك .. ولكنه اسرع يقول :

ـ حد الله بينا وبين الحاجات دى .. انا فى حالى يا بيه ، ماليش دعوة بيها ..

فقلت له :

ـ بيتخانقوا عليها .. بيقتلوا بعض علشانها ..

وتجهم وجهه وقال :

ـ ليه يتعاركوا يا بيه .. كلهم ولد عم .. يجتلوا الغريب مايجتلوش بعض ..

ورفض الرجل أن يضيف شيئا آخر .. وكلما الححت فى سؤاله ، ردد قائلا « انا فى حالى يا بيه » ..

واشرف اللورى على سطح الهضبة ، وظهرت كهوف امامنا فى سفح الجبل ،وقبة وحيدة لضريح ، لا شك انه مقام الشيخ الذى

تتبرك به الجرنة ..

وأوقف السائق اللورى ، ونظر امامه فى قلق وحذر ، ثم اشار الى بعيد ، وقال :

ــ العمدة .. هناك ها ..

ودققت النظر امامى ، فلم المح شيئا .. فسألته بقلب واجف :

فأشـــــار بيده وتبعت اتجاه يده ، فرايت رجلا واقفا وفى يده بندقية ، ممسكا بها ولكنها غير مصوبة نحونا ..

ولم اقل شيئا .. هبطت من اللورى .. ومضيت فى هدوء نحو الرجل ، أسير نحوه كالمنوم ..

كان الرجل يقف صامدا كتمثال فرعونى .. ينظر نحوى فى جمود ، والمسافة بينى وبينه تقترب شيئا فشيئا ، وأنا لا اكاد اراه بعينى الزائغتين ، وقدماى تتحركان بغير ارادتى ، وطنين يدوى فى راسى ، حتى اصبحت على مبعدة عشرين مترا منه ، فاذا به يرفع بندقيتـه بسرعة خاطفة ، ويصوبها نحوى ، ويضع اصبعه على الزناد ..

ووقفت مكانى ، صلبا لا اقوى على الحركة ..

ومضت قرون من الزمان ، والرجل لا يقول شيئا ، وهو يصوب فوهة بندقيته نحوى ، وأنا واقف بلا حراك فى مكانى ·· لا أدرى كيف أتصرف ··

وأخيرا صرخ الرجل :

ــ انت مين ؟

وبلعت ريقى وجاهدت حتى أحصل على أنفاسى ، ولم اقـــو على الكلام ·· كانت عيناه صارمتين ، ترسلان وميضـــا من البريق الاسود ··

وسدد الرجل بندقيته ، وصرخ من جديد :

ــ انت مين ؟

وخرج منى صوت غريب ، انكرت أنه صوتى ·· كان الصوت يقول فى ذلة مخيفة :

ــ أنا عايز حضرة العمدة ··

قلت « حضرة العمدة » كما لو كنت أقول « حضرة صـــاحب الجلالة » ، وفكرت فى أن أستدير وأجرى نحو اللورى ، ولكنى

خشيت أن التفت ورائى ·· كانت الرصاصة ستنطلق حتما وتستقر فى رأسى أو قلبى ··

وخف صراخ الرجل ، وسألنى :

ــ عايزه ليه ؟

قلت له :

ــ أنا جاى مخصوص من مصر علشان أشوفه ·

ونظر الى الرجل فى ارتياب ·· ثم التفت الى جانبه ، ولمحت فى تلك اللحظة جسدا ممدا على الارض فوق « برش » من الخوص ··

كان جسد رجل نائم ··

واقترب الرجل منى ، وفوهة بندقيته تتقدمه ، حتى أصبحت على قيد بوصة من قلبى ، وعيناى مستقرتان على اصبعه الذى يكاديضغط على الزناد ··

وقال الرجل فى تحد :

ــ العمدة نايم ··

وكدت أستأذنه فى الانصراف ، ولكنى خشيت ألا يسمح لى ، وزاد اطمئنانى عندما علمت أنه ليس العمدة ، وأن النائم هو العمدة · أردت أن أتفاهم مع ذلك النائم ·· نظرت الى الجسد الممدد على «البرش» فرأيت رأسا انتشر فيه الشيب ، وراعنى منظر ســـحال طويلة كالثعابين تمرح حول راسه ·· ونظرت تحت قدمى فرأيت سحالى اخرى كثيرة ، فشببت على أطراف أصابع قدمى وأنا العن غبـــائى وجبنى الذى دفع بى الى هذا المكان ··

وتوسلت للرجل :

ــ أعمل معروف ·· لازم أكلم العمدة أنا سافرت وجيت مخصوص من مصر علشان أكلمه ·· الحكومة بعتانى له ··

وتردد الرجل قليلا .. كان يفكر فى ايقاظ العمـــدة ، وهـــل يستحق مثلى أن يقطع العمدة من أجله نومه العميـــق ·· كانت الشمس ساطعة ، والمكان خاليا من الاهالى ·· انهم ولا شك قضوا الليل كله يكحتون الجبل ، بحثا عن الكنز .. فناموا بالنهار ..

وفضل الرجل أن يوقظ العمدة على أن يقتلنى ، فخفض بندقيته ، واتجه الى العمدة ، وهمس بصوت رقيق حنون عجبت كيف يصدر منـه :

– يا عمدة .. يا عمدة ..

ورفع العمدة رأسه ، ونظر الى الرجل فقال له وهو يشير الى :

– راجل من رجالة المهندس عايز يكلمك ..

وفوجئت به يصفنى بأنى من رجالة المهندس . لقد أوضحت له انى جئت من مصر ، وان الحكومة أرسلتنى الى العمدة .. ولكنه كان واثقا من كذبى ، ولم يتظاهر بأنه يصدقنى .. كان كلامه للعمدة صفعة موجهة الى .. الى ذمتى وأمانتى .. ولابد أن اللورى الذى حملنى الى هنا هو الدليل القاطع الذى استند اليه فى اننى أحد رجال المهندس ..

وأدار العمدة راسه وهو ما زال راقدا فوق البرش ، متكئا على كوعه ليرفع رأسه قليلا ، ونظر الى نظرة عميقة .. بعينين ضيقتين جسورتين ، ومد يده اليسرى نحوى ، كأنه يطلب منى أن أساعده على النهوض ، وتقدمت منه . ومددت له يدى ، فقبض عليها ولم ينهض من رقدته . جذبنى بشدة فوقعت على الارض الى جانبه وفرت السحالى مذعورة من حولى .

كان العمدة العجوز رجلا قويا ، ودبت القشعريرة فى بدنى ، كنت ارتعد من كل شىء ، من البندقية ، والعمدة والسحالى ، والارض التى وقعت عليها ولم يترك العمدة يدى ، تفرسنى بعينيه كانهما مسماران يثقبان راسى ، وتأنى وهو يحدق فى دون أن يهتز له جفن او رمش ،أو عضلة فى وجهه الخشن المجعد .

وسألنى فجاة فى صوت عميق كانه صادر من بئر سحيق :

– انت مين ؟

كان يسألنى ، وليس فى عينيه ولا فى وجهه ما ينم عن انفعال او قلق .. كان وجهه جامدا صلدا كالحجر

وقلت له محاولا أن اكون هادئا :

– أنا جاى من وزارة المعارف فى مصر .. علشان الشكوى اللى كتبها حسين على باسمكم ضد القرية النموذجية ..

واطرق الرجل برأسه ، وشدد من قبضة يده على ذراعى وقال :

– انت من رجالة المهندس .. هو اللى بعتك ؟

فأنكرت فى حرارة وقد نسيت تماما السحالى التى تمرح من حولى :

– أبدا . والله .

فأشار بيده الاخرى التى لا تقبض على ، نحو اللورى الواقف بعيدا وقال :

– انت جاى فى اللورى بتاعهم ؟

وانتهزت الفرصة لأدافع عن نفسى :

– انا طلبت اللورى علشان يوصلنى عندكم .. لكن أنا ما اعرفش المهندس وماليش دعوه بيه ..

فقاطعنى قائلا :

– اسمك ايه ؟

فأجبته :

– فتحى غانم

– والمهندس هو اللى بعتك ؟

قالها فى هدوء كأنه يشجعنى على الاعتراف بهذه الحقيقة ولم أملك غير الصبر ، وعدت أؤكد له من جديد :

– قلت لك أنا ماليش دعوة بالمهندس

وافرج عن ذراعى الذى يقبض عليه ، ودس يده فى داخل صدره ، وأخرج « نوتة » صغيرة وقلما قصيرا .. قلم كوبيا

وسألنى من جديد فى هدوء قاتل :

– اسمك ايه ؟!

– فتحى غانم

– وجاى منين ؟

– من مصر .. من وزارة المعارف ..

ومد يده « بالنوتة » والقلم قائلا :

– اكتب اسمك وعنوانك هنا ..

ومددت يدى لآخذ « النوتة » منه .. ولكنه عاد وسحب «النوتة» بسرعة ، وقلب بعض صفحاتها ، حتى استقر عند صفحة بيضاء ، قال لى :

– اكتب هنا ..

ومددت يدى الى جيبى لاخرج قلمى الحبر ، ولكنه قال لى فى تصميم :

- اكتب بالقلم ده ..

واعطانى القلم الكوبيا ، وكتبت اسمى وكتبت عنـــوان ادارة التحقيقات « عمارة سيف الدين بشارع القصر العينى » ..

واخذ منى النوتة « وقربها من عينيه ليقرأ فى عناية وتمحيص ثم رفع رأسه عن النوتة وسألنى من جديد :

- اسمك ايه ؟

كان يكرر هذا السؤال كأننى فى كابوس مزعج ..

وعدت أجيبه فى يأس :

- فتحى غانم

ونظر الى اسمى فى « النوتة » برهة طويلة .. ثم سألنى :

- وعنوانك ؟

فقلت له :

- عمارة سيف الدين بشارع القصر العينى ..

ولمعت عينا الرجل بالشر ، وقال بصوت هادر ، جعـــل الرجل الممسك بالبندقية يقترب منى ، ويصوبها الى . صاح العمدة :

- انت كداب . دا موش عنوان الوزارة ..

وأجبته بسرعة والعرق يتصبب على جبينى :

- عنوان الوزارة ، شارع الفلكى لكن ادارتنا فى شارع القصر العينى . والله العظيم انا باقول الحق .

فمد لى يده بالنوتة ، وقال فى حزم :

- اكتب عنوان الوزارة ..

وكتبت عنوان وزارة المعارف بشارع الفلكى .. وأخذ منى النوتة وقراها من جـديد . واشــار بأصــبعه الى ما كتبتــه وقال لى :

- اقرأ العنوان ..

وفى تلك اللحظة صدمتنى حقيقة مذهلة ، أحسست فجأة انه لا يعرف القراءة والكتابة ، انه يمتحننى بالورقة والقــلم ، دون ان يستطيع قراءة حرف واحد مما اكتب .. ومنعنى خوف من أن اواجهه بهذا الاكتشاف ، كان من مصلحتى أن أتركه يواصل محــاولاته الخاصة للتأكد من شخصى ..

ونهض العمدة فجأة ، فاذا به طويل جدا .. عملاق .. مارد ..

وجذبنى معه ، فاصبحت واقفا الى جانبه ، ومد يده اليمنى ، وقبض بها على كفى كأنه يسلم على ، وقال لى فى انفعال :

- جول معايا ..

ونظرت اليه مستسلما فى غير فهم ، ومد أصبع يده اليسرى نحو عينى وهتف :

- وعينيك ..

كنت أرتعد فى غباء مطبق . فكرر من جديد :

- جول معايا .. وعينى .

- وعينى ..

وهبط أصبعه الى فمى وهتف :

- وخشمك ..

- وخشمى ..

وشدد القبض على يدى وقال :

- ودراعك ..

وقلت :

- ودراعى ..

واشار الرجل الى رجلى وهتف :

- ورجليك ..

- ورجلى ..

وزادت حدة انفعاله وهو يقول :

- ان شاء الله .. يصيبنى بالعمى والخرس والشلل ..

وترددت .. فصرخ فى ، فكررت بسرعة وراءه :

- ان شاء الله يصيبنى بالعمى والخرس والشلل ..

وقال فى حدة :

- ان كنت كذاب والا من رجال المهندس ..

وصاح :

- اجرا الفاتحة ..

وتمتمت بالفاتحة ، ولكنه لم يرض بصوتى الخفيض ، وطلب منى أن أقرأها بصوت مرتفع ، ولما فرغت من الفاتحة ، تهلل وجهه بشرا، وشد على يدى مرحبا ، وقادنى الى « دكة » خشبية ، جلسنا عليها،

وقال للرجل الممسك بالبندقية :
ـ هات يا ابراهيم البرتقانات ..

واعتذرت له عن آكل البرتقال ، ولكنه لم ينصت الى اعتذارى ولم يأبه به .. وربت على كتفى فى عطف ، وقال لى :
ـ سلامات .. شرفتنا ..

وانتهزت الفرصة كى أسترد انفاسى ، واستعيد افكارى ، وانظمها

وبرز لنا فى هذه اللحظة شاب يبدو عليه انه ابله ، يسيل اللعاب من شدقيه ، ويركب عصا من الجريد ، اقترب منا وهو يقفز فى الهواء ، ودس العمدة يده فى جيبه وأخرج له تمرتين واعطاهما له ، وجلس الابله عند قدمى العمدة ، ووضع التمر فى فمه ولاكها فى شغف ، واشار الى قائلا للعمدة :
ـ يا عمدة .. هو دا عسكرى ...

والتفت الابله الى وقال كانه يحفظ كلاما عن ظهرقلب :
ـ لا لجينا حاجة .. ولا كحتنا الجبل .. ولا لجينا دهب ، ولا مساخيط ..

وقال العمدة وهو يضحك ، فبدت اسنانه الصفراء فى فمه :
ـ يا واد اسكت .. الافندى جاى علشان متنزلوش البنايات

وحاولت ان اقول شيئا اشارك به الحديث ، فسالت الابله بغير وعى :
ـ انت موش شايف ان البنايات أحسن من هنا ..

وادركت فى الحال انى ارتكبت خطأ جسيما .. هب الابله مذعورا من مقعده وصاح مقلدا التراجمة :
ـ جنتلمن .. كان هنا فيه ملك ..

ثم جرى قافزا بعصايته (الجريد ، وهو يصرخ وينادى يا محمد يا صالح .. يا جازيه .. يا مكى .. يا حسان .. يامعوض . يا ام الخير .. ياشيخ غريب ..

وقال العمدة فى تأنيب :
ـ رعبته يا شيخ .. ليه تجول له ان البنايات أحسن ..

ولم تمض ثوان ، حتى رأيت رجالا ونساء انشق عنهم الجبل زاحفين نحوى ..

وكانت اسرعهم فى الوصول الينا ، امراة شابة ، غارقة فى ملابسها السوداء ولا يبدو منها غير وجه وسيم ، تضيئه عينان واسعتان جميلتان ..

وقالت المرأة فى حدة موجهة كلامها للعمدة :
ـ جلت له ايه يا عمدة .. اوعى يكون بيضحك عليك .. ويكون من رجالة المهندس ..

فصاح العمدة فى حنان أبوى :
ـ لا يا بت .. أنا مكتبه اسمه وعنوانه .. وأخدت عليه عهد الله انه من مصر ..

ولم تقتنع المرأة بما سمعته ، فسالت فى اهتمام :
ـ مضيت له على حاجة ..

وارتفع صوت العمدة وهو ينكر انه وقع على شئ ، وسط أصوات مختلفة انطلقت حولنا :
ـ شوف يا حضرة الافندى .. احنا موش متعلمين .. مفرضناش تنزلوا واصل .. الجبل جبلنا .. وجبل جدودنا . لورى الاثارات واجف يعمل آه ..

وتركهم العمدة ، يقولون كل ما يجول فى صدورهم ، وهو ينظر اليهم فى اطمئنان وسرور .. ثم قال لهم أخيرا :
ـ جلتلكم الافندى جاى من مصر .. وجاى يسمع شكوتنا . وانا اللى ح آكلمه ..

وانطلق صوت محتجا :
ـ ولورى الاثارات ..

فصاح العمدة .. ح نمشيه .. والافندى يجعد معايا أجوله كل حاجة على المهل . روح يا ابراهيم جول للورى يمشى من هنا ..

ولم اقو على الاعتراض .. بل أيدت طلب العمدة ، وقلت له :
ـ انا رايح مع ابراهيم علشان آكلم السواق ..

وذهبت الى السائق ، وقلت له ان ينصرف لحاله ، وما كاد السائق يسمع الامر ، حتى رحب به ولم يسالنى كيف أعود ، ولم أسال نفسى هذا السؤال .. انطلق السائق باللورى وهو يشكر الله لانه نجا بجلده .. وعدت أنا الى العمدة وحدى . تحت رحمته تماما ..

الفصل الخامس

اكلت « البرتقانات » التى جاء بها الرجل الذى كاد يقتلنى ببندقيته ، ولم أستطع الانفراد بالعمدة لأسمع منه ما يريد أن يقوله لى ، تكاثر حولنا أهل الجبل ، وقد ارتفعت أصواتهم ، تطالبنى بان أزور مقابر الفراعنة ، قبل اى شىء آخر ..

كانوا يتحدثون عن المقابر ، كما لو كانت من ممتلكاتهم الخاصة ، لا دخل للحكومة بها ، ولا سلطان لاحد عليها سواهم ..

وتركنى العمدة لهم ، وقال لى انه سينتظرنى حتى اعود اليه ومضيت مع قافلة من النساء والرجال نحو المقابر ، وقد سادت بينهم حركة نشيطة .. امراة تجرى الى احد الكهوف . وتخرج منه بمرآة ، ورجل يسرع الى كهف آخر ويأتى ومعه بطارية صغيرة ، وصبى يتقدم منى ويشد قماش بنطلونى ويبرز لى تمثالا فرعونيا صغيرا .. قائلا فى الحاح :

ـ اشتريه .. اشتريه ..

فينهره رجل كبير ، ويهشه بعصا غليظة فى يده ، قائلا له فى عصبية وشهامة :

ـ متجربش يا واد .. دا ضيف علينا مش م السياح ..

وشكرت للرجل فى نفسى مروءته .. واحدث قوله «ضيف علينا» رد فعل مفاجىء للخوف الذى كنت أعانى منه ، احسست بالطمانينة تنساب فى صدرى وأيقنت أنهم لن يصيبونى باذى ..

ووقفت عند شىء عجيب ، كأنه قلعة ضخمة من القلاع التى تستخدم فى لعبة الشطرنج ، وعلى سطحها نام طفل صغير .. وقالوا لى ان البناء لخزين القمح وان سطح البناء له حافة مستديرة مائلة الى الخارج ، لان العقارب لا تستطيع الزحف على المسطحات المائلة ، فتحتفظ الامهات بأطفالهن على السطح وهن مطمئنات على اطفالهن ،

ومجبت لنفسى ، كيف لم افزع فى تلك اللحظة وانا اسمع عن العقارب ، لعل شيئا فى داخلى قد تغير دون ان اشعر ، هل هو الاستسلام ، ام الياس ، ام هو اطمئنان حقيقى الى المكان ! ..

ورايت المراة التى جاءت بالمرآة تجلس القرفصاء وتعكس اشعة الشمس بمرآتها نحو فوهة احد الكهوف فتضيئه من الداخل ، ولم يكن الكهف فى هذه المرة بيتا للسكنى .. كان مقبرة فرعونية ..

وتقدمنى احد الرجال الى داخل الكهف فتبعته ، وظل الاخرون فى الخارج .. كان الكهف حجرة صغيرة : حوائطها منقوشة بالوان زاهية .. رسوم فرعونية لفلاحين يزرعون ويحصدون وكاتب حسابات يدفع اجور الفلاحين ، وآخر يزن القمح بمكيال .. وانطلق الرجل يشرح لى ما اراه على ضوء النور الذى تعكسه المرآة من اشعة الشمس ..

لم يقل كلاما خرافيا ، ولم يسترسل فى حوادث ساذجة ، تكلم كعالم آثار خبير ، يحفظ التاريخ بدقة ، وينقله الى سامعه بامانة ..

قال لى ان كل الكهوف فى هذه المنطقة تحوى مقابر الاشراف اى طبقة كبار الملاك والاثرياء من الفراعنة ، والملوك الفراعنة لهم مقابر فى مكان ثان ، والملكات الفراعنة مقابر فى مكان ثالث

وسالت الرجل :

ـ وليه انتم ساكنين مع الاشراف ؟

فنظر باسما الى صور الفلاحين المنقوشة على الحوائط منذ آلاف السنين وقال فى بساطة وحرارة وايمان :

ـ دول اجدادنا يا بيه ..

كان ينظر الى الصور وفى عينيه نفس الحنين الذى نشعر به عندما نتامل صورة قديمة لقريب عزيز مات فى عائلتنا .. لاشك انهم لا يحافظون على هذه الصور بدافع التقديس للعلم والتاريخ .. انهم يحافظون عليها بدافع رابطة الدم بينهم وبين اجدادهم الفراعنة ..

واضاء الرجل بطاريته الصغيرة . وصوبها الى صورة الفلاح الذى يكيل القمح ، وقال ضاحكا :

ـ الراجل ده سحنته مثل العمدة ..

انه يرى فى صور الحاصدين والزارعين والذين يقبضون أجورهم ، عائلته القديمة انه فى صميمه ليس رجل الجبل . انه فلاح .. الجبل

عن الحائط الاخير فى طريق عشيرته . طردتهم ظروف الحياة من الحقول وابعدتهم عن كل شىء ، وتقهقروا حتى اسندوا ظهورهــم الى الحائط . الى الجبل . وهنا وقفوا ليحاربوا من اجل بقائهم فى الدنيا

انهم لا يعرفون كيف يتقدمون . كيف يتطورون بحياتهم ، فيلتفتون الى الجبل . الى الحائط من خلفهم . ويضربون لعل الصخر ينفتح عن امل .. عن مستقبل

صخور الجبل فى داخلها عرق اجدادهم وتعبهم ، تخفى الكنوز التى صنعوها ، وحملها الاغنياء ـ الاشراف ـ الى مقابرهم ، ولقد جاءوا الى الجبل وراء حقهم الذى دفنه الاشراف ، يريدون استعادة الميراث الذى خلفه لهم الاجداد

دارت راسى بهذه الافكار ، وانا اتامل على ضوء البطــارية ملامح العمدة الفرعونى الذى يكيل القمح . ان العمدة الحالى يكيل فى احلامه الذهب . هل الذهب وحده هو الذى يقيهم فى هذا المكان : اليست هذه الرسوم على الحائط باعثا آخر على التصاقهم به . خطر لى هذا السؤال ، ولكنى أنكرته فى الحال .. انه خاطر عاطفى جميل .. ولكنهم لا يملكون فرصة التمتع بالعواطف الجميلة المجردة . انهم فى معركة من اجل العيش . فى معركة مع الحكومة ، وفى الحال خطر لى سؤال آخر عجبت كيف لم افكر فيه من قبل .. سؤال لاشك انه خرج من عقلى الباطن ، وانا اشاهد صور العمل فى الحقول الفرعونية .. البذر والحرث والحصاد . كان السؤال :

ما العمل الذى ينتظر اهل الجبل لو تخلوا عن كهوفهم ، وهبطوا الى القرية النموذجية ؟ .

وانتابتنى رعدة ، وانا لا اجد اجابة على السؤال .. هل يمكن هذا . أن يقوم مشروع حكومى ضخم تنفق فيه الاموال وترسم فيه الخطط ، وتتحرك فيه عبقرية الفن ، دون أن يسال احد نفسه .. ما الذى سيصنعه هؤلاء الناس فى قريتهم الجديدة ؟ مستحيل .. لابد ان المهندس يعرف الاجابة على هذا السؤال .. ولابد ان العمدة ايضا يعرف ماذا يراد به هو واهل الجبل ..

ساسال العمدة بمجرد ان افرغ من مشاهدة هذه المقبرة

لقد بدات اتبين عمقا جديدا للشكوى التى احققها .. شكوى حسين على ..

اين حسين على ؟

وسالت الرجل فى الحال :

ـ حسين على فين ؟

واطرق الرجل براسه ، ولم يجب على سؤالى . كان يفكر تفكيرا عميقا . ثم قال وهو مازال مطرقا :

ـ ما اعرفوش ..

قالها .. بعد أن اتخذ قرارا بينه وبين نفسه .. الا يقول لى شيئا اكثر من اللازم . شيئا لا يعرف مدى نتائجه ..

وعدت أوضح للرجل ماذا اعنى . قلت له :

ـ حسين على اللى قدم شكوى للحكومة فى مصر . علشان مانتزلوش القرية النموذجية ؟

وصمت الرجل تماما . حتى سمعت انفاسه واضحة تتردد داخل المقبرة ..

وأقلقنى صمته . من يدرى ، ربما كان هذا الرجــل بالذات يريد الهبوط الى القرية النموذجية والسكنى فيها .

وسالته ببساطة :

ـ واللا انت موافق على النزول فى البنايات ..

القيت هذا السؤال من قبل على الابله . فهاج وجمع القرية كلها بصياحه ، ولم اتعلم مما حدث . ظننت ان الابله قد هاج لانه ابله .. ولكن هذا الرجل اقنعنى تماما بانى ارتكب خطا قاتلا بتوجيه هــذا السؤال لاى انسان فى الجبل ..

نسى الرجل انى ضيفه ، وتخلص فجاة من حذره وخرج من تفــكيره العميق فى اسئلتى التى لايجيب عليها ، ونظر الى نظرة مفترسة ، ومد يده الى صدرى وقبض على رباط عنقى بشدة . وجذبنى اليه حتى اقترب وجهى من وجهه ونحن واقفان داخل المقبرة .. وقال فى صوت خفيض حازم :

ـ لو نزلنا البنايات ح نخطف الافندية اللى زيك . ح نختفى فى الجبل ونضرب فى السياح .. محدش منكم يعتب هنا .

كان انذارا واضحا حاسما . احسست به فى عنقى

ورفع الرجل يده عنى . وقد بدا امامى كمارد مخيف ، عفريت من عفاريت المقابر

واسرعت بالخروج فلحقنى الى الخارج ونظر الى وكانه لم يمسك بخناقى منذ لحظة ، وصمم على دعوتى لمشاهدة كهفه الذى يسكنه ، وليقدم لى الشاى ..

***

كان كهفه بلا نقوش .. كانت أطباقا جميلة من أنقش الملون هى التى تزين الحائط ، ورأيت زوجته فى ملابسها السوداء ، ومعها صبية فى جلباب مزركش تقفان خارج الكهف تنظران الينا فى صمت .. والصبية قد صففت شعرها فى ضفائر كثيرة قصيرة منسدلة على جبينها .. نفس تسريحة الشعر الفرعونية التى أراها فى صور الملكات . .

كان جمال الصبية مثيرا ، لا استطيع ان أصف هذه الصبية بأنها جميلة كالقمر او رقيقة كنسمة الربيع . أصدق ما توصف به .. انها حنونة كالارض الخضراء ، فائرة كشمس الصيف نبيلة كملكة فرعونية ..

ونظرت الى الصبية بعينين لا تعرفان الخجل ، ولكنهما تعرفان الحياء . كانت تنظر فى دهشة ، ولكنها لا تنظر خلسة ، عيناها صريحتان يخرج منهما بريق أسود حزين ..

واشار مضيفى الى الاطباق ، وقال لى ان ابنته هى التى صنعتها بيديها ، وانه يفخر بمهارة ابنته ، فكلما زادت اطباقها زادت فرصتها فى الزواج ، واقبل عليها الخطاب من شباب أهل الجبل ..

وايقنت انى لو كنت شابا من الجبل لما ترددت لحظة فى التقدم لخطبة هذه الصبية .. ترى هل كانت ترضى بى ، من فتى أحلامها من الذى ترضى أن تمنحه جسدها الحنون وهى فرحة نشوانة ؟

.. انى عاجز تماما عن معرفة مشاعر المرأة على حقيقتها هنا .. فى الجبل . لا شك أن لغة عواطف الانثى فى هذا المكان ، تختلف تماما عن لغة عواطف الانثى فى المدينة الكبيرة التى اعيش فيها . . فى القاهرة

يخيل الى أن الصبية لم تنظر الى أبدا على انى رجل ، من الممكن ان تقوم بينها وبينه علاقة عاطفية ، اعتقد انها عاملتنى بينها وبين نفسها كحيوان غريب ، او مخلوق شاذ ، كتلك المخلوقات العجيبة التى تأتى فى صورة سياح وتتطفل على مقابر أجدادها الفراعنة ..

ولم أجد فى الكهف غير الاطباق القش ، وسرير حجرى ضخم تحته موقد للنار ، وسلة فى أحد الاركان وصندوق خشبى ضخم لا ادرى من اين اتوا به وجلست انا ومضيفى فوق الصندوق . بينما تقدمت الزوجة وصنعت لنا الشاى وأفرغته فى اكواب صغيرة اعطتها لابنتها لتقدمها لنا ..

وفوجئت بصبى صغير يدخل علينا وهو يقود حمارا .. دخل الحمار الكهف فاستقبلوه باهتمام كبير ، واسرعت الصبية تقدم له العلف بعد أن ربطته فى أحد الاركان .. انه واحد من أسرتهم ، يعيش معهم ويأكل وينام تحت نفس السقف الذى يأكلون وينامون تحته ..

ونظر مضيفى الى الحمار ، ثم نظر الى وبدأ يشرح لى كيف أن مهندس القرية النموذجية يريد منهم أن يتركوا دوابهم بعيدا عن بيوتهم ، وقال فى تأثر :

ــ الواحد منا ينام بعين مغمضة وعين مفتحة على حمارته والا بهيمته .. كيف أنام والحمار بعيد عنى .. مين يحرسه .. المهندس .. والله ما كانت تمر عليه ليلة الا والاجيه مسروج ..

وتدخلت الزوجة فى الحديث ، وذهلت وانا استمع الى نقد فنى توجهه الى هندسة مبانى القرية النموذجية ، انها غير راضية عن القباب التى صنعها المهندس فى البيوت ، فهى لا تعرف القبة الا فى ضريح ولى الله ، وهو مقبرة ، فلماذا يصر المهندس على اسكانهم داخل مقبرة ، انها لم تمت بعد ، حتى تدخل بيتا له قباب .. ستعيش حياتها هنا فى الكهف ، واذا ارادت الحكومة أن تنقلها الى بيوت المهندس ، فلتنقل جسدها بعد أن يدركها الموت ، وتدفنها فى تلك البيوت .. لا مانع عندها ابدا ان تكون القرية النموذجية مقبرة لأهل الجبل ..

وكان منطق المرأة قويا ، فهى صاحبة البيت كما يريد لها المهندس ، لماذا اذن لم يستشيروها فى رسم البيت الذى ستسكنه كيف يطلبون من زوجها أن يوقع على وثيقة البيت ، وهى تنفر من شكله وتتشاءم من السكنى فيه .. ان المساكن لا تفرض على أصحابها والا تحولت الى سجون ، وهى لم ترتكب ذنبا أو اثما حتى يحكم عليها بالسجن ..

وأشارت المرأة الى ابنتها التى كانت تجلس صـامتة ، وقالت فى اسى ، ان هذه الصبية وابنها الصغير والحمار يتعبون كل يوم عندما يقومون برحلتهم الطويلة اليومية لينقلوا الماء من النهر الى الجبل.. وكان بودها لو نقلت الحكومة الماء لهم ، بالاموال التى انفقتها فى بنـاء هذه القرية التى لن يسكنها أحد ..

وكنت قد فرغت من شرب الشـاى .. وتدخين سـيجارة « ابو غزالة » قدمها الى مضيفى ، فنهضت مستأذنا للذهاب الى العمـدة الذى ينتظرنى ، وودعتنى الزوجة قائلة :

ـ اتكلمنا كتير يا افندى مع رجالة زى حالاتك ، ولاشفناش حاجة .. المهندس لـه جاعد فى البنايات غرضه ينزلنا بالعسكر ..

وتحطمت مقاومتى امامها .. فقلت لها فى حماس دون أن أدرى خطـورة ما اقوله :

ـ ان شاء الله مش ح تنزلوا البنايات وتفضلوا هنا زى ما انتم عايزين ..

خرجت من طبيعتى كمحقق وأصدرت حـكما فى القضـيـة وأنا لا املك الحكم فيها ، ولم تفرح المرأة بكلامى ، وربمـا اعتادت سـماع وعود كثيرة من « الافندية » ولا تتحقق هـذه الوعود . كفـاها انها شرحت لى افكارها ، ولأفعل أنا والحكومة التى انتدبتنى ـ بعد ذلك ـ ما تشاء .. انها مصرة الا تسكن القرية النموذجية حتى الموت ..

ووجدت العمدة جالسا على الاريكة يرقبنى وأنا قادم مع مضيفى، وافسح لى مكانا جانبه ، وتركنا مضيفى وحدنا ليتيح للعمدة فرصة شرح قضيتهم لى :

وبدأ العمدة حديثه فى هدوء :

ـ شوف يا ابنى .. انا لا يهمنى المهنـدس .. ولا الحـكومة ولا الملك كمـان ..

وتلفت حولى فى جزع ، كأن هناك من يتجسس علينا .. ان تحدى الملك علنا على هذا النحو ، قد يؤدى الى رفتى من وظيفتى . وربما قبضوا علينا والقوا بنا فى السجن ، أنا والعمدة

ـ بلاش الكلام ده يا عمدة ..

فصاح باعلى صوته :

ـ أنا ما اخفش من حد .. انا جلت الكلام ده جدام الاميرة

وسألته فى لهفة وحذر :

ـ قـلت للاميرة ايه ؟

وربت العمدة بيده على كتفى قائلا :

ـ صبرك بالله . انا ح اجولك على كل حاجة

وروى لى العمدة ما حدث بينه وبين الأميرة

لقد قامت بينهما معركة ..

كان ذلك عندما فرغ المهندس من بناء اهم مبانى القرية . والجامع والمدرسة والسوق والخان وبيت العمودية واحد الاحيـاء الخاصـة بسـكن الاهالى ..

وقرر المهندس افتتاح القرية واقامة حفـل كبـير تحضره وتشرفه الاميرة ، ويستقبلها اهل الجبل ، ويشكرون لها زيارتها لهم وفضلها وفضل شقيقها الملك عليهم ببناء القرية الجديدة لهم ..

وفى صباح احد الايام ، جاء المقاول كرسـول من المهنـدس ليبلغ العمدة بنبأ الحفلة ، ووافق العمدة على أن يقـابل مع اهل الجبل ، الاميرة ويرحبون بها ، وتساهل العمدة ، فرضى أن يهبط مع رجاله الى القرية النموذجية والا يشترط ـ كما كان يود فى قرارة نفسـه ـ ان تصـعد الاميرة اليهم فى جبـلهم ، وتزورهم فى مسـاكنهم ، وكان العمدة يرى ان زيارة الاميرة فرصة حسـنة ليشرح لها موقف اهـل الجبل من القرية النموذجية دون ان يهتم بان الحفلة اقيمت من أجـل القرية النموذجية واتمام بنائها .. كان العمدة يؤمن انهم على حق ، وان اى كلام يقوله للاميرة ، سيصلح فى الحـال الظلم الواقع عليهم ، وسيزيل خطر التهديد بنقلهم من الجبل ..

وجاء صباح يوم الاحتفال ، وقد أعد العمدة رجاله الذين سيرقصون بالعصى امام الاميرة ، واستعد مغنى الجبل مع فرقتـــه المكونة من عازف المزمار وعازف الارغول والضارب على الدف .. ليؤدوا أدوارهم الغنائية أمام الاميرة ..

وذهب بعض الرجال الى القرية النموذجية ، يسـتطلعون ما يقام فيهـا من استعدادات ، واذا بهم يفاجـئون بسـيدات منتشرات فى



واستمرت المرأة تصرخ بالفرنسية :
ــ أنتم همج .. وحوش يجب ان تامر بلزالموتود الكهرباء اللى جئتم بهعلنا الصباح ، ساحطم لكم الاسلاك . سانسف الموتود سأقاوم هذه البشاعة التى جئتم بها الى هذا المكان..

القرية ، يلبسن ملابس بيضاء .. ومعهن قوة من رجال البوليس ..

وامرت السيدات رجال البوليس ، بان يقبضوا على القادمين من اهل الجبل ، و… حمام أعد لهم حيث قاموا بغسلهم بالماء والصابون كما تغسل الجياد ، ثم اخرجوهم من الحمام وقد رموا ملابسهم ، واعطوهم « جلاليب » جديدة .. ذات لون واحد ــ هو اللون الابيض .. حتى أصبح الرجال وكانهم فرقة اخرى من فرق العساكر ترتدى الجلاليب

وانتقل النبأ بسرعة الى اهل الجبل .. واعتبروا ماحدث لزملائهم اهانة كبرى .. باى حق يجبروهم على الاستحمام وكيف يستهترون بهم ، فيلقون بملابسهم ، ويعطونهم ملابس اخرى لها لون واحد ، حتى أصبح منظرهم مثيرا للزراية والشفقة ..

وصمم اهل الجبل على عدم حضور الحفل .. حتى يوفروا على انفسهم عملية التعذيب التى سيمرون بها من اجل استقبال الاميرة ..

وعرف المهندس ، بما اعتزمه اهل الجبل ، فثار وكاد يجن جنونه .. انها كارثة ان تحضر الاميرة فلا تجد من يرحب بها ويهتف باسمها ، ويرقص امامها ، ويغنى لها الاناشيد ، كيف يجرؤ الاهالى على ارتكاب مثل هذه الحماقة .. لابد من ارسال فرقة من العساكر لتأديبهم واحضارهم بالقوة ..

وصدرت الاوامر فعلا للعسكر بالتقدم نحو الجبل ، والقاء القبض على اهله جميعا ، رجالا ونساء واطفالا ، والهبوط بهم الى القرية ، واجراء عمليات الاستحمام واستبدال الملابس لهم ثم اصدار الاوامر لهم بالهتاف والغناء والرقص عند حضور الاميرة ..

وتحرك العسكر نحو الجبل .. بينما تجمع اهل الجبل وقد حملوا السلاح ، استعدادا لمقاتلتهم ..

وأدرك العسكر من تجمعات أهل الجبل ، انهم سيواجهون مقاومة كبيرة ، واسرع الضباط والمهندس يتشاورون ..

ان حدوث معركة تسفر عن قتلى وجرحى يوم زيارة الاميرة أمر غير مرغوب فيه ، سيؤدى الى أوخم النتائج بالنسبة للجميع لا مفر اذن من تفادى المعركة ..

وصدرت الاوامر للعسكر بالانسحاب .. فعادوا الى القرية النموذجية .. وبقى المهندس يشد شعر راسه باحثا عن طريقة يستقبل بها الاميرة بحشود من الهاتفين المرحبين ..

وتدخل ضابط العسكر بفكرة وجيهة .. لماذا لا يحضرون فرقة كبيرة من فلاحى احد الباشوات فى حقول الشاطىء الشرقى يعبرون النيل الى القرية النموذجية ، بعصيهم وخيولهم ومزاميرهم .. ويستقبلون الاميرة استقبالا ضخما على انهم اهل الجبل !!

ورحبوا فى حماس بالفكرة ، وكانت هى المخرج الوحيد للمازق الذى يواجهونه ..

وعملت اللوريات والمراكب ، فى نقل الفلاحين ، حتى امتلات بهم القرية .. وتضاعف عدد العسكر ، خشية نشوب صراع دموى بين اهل الجبل الحقيقيين ، واهله المزيفين ..

وجاءت الاميرة وارتفعت الهتافات ، وبدأ الرقص والغناء

وكان العمدة فى تلك اللحظة ، يرقب فى تحفز مع اهل الجبل ما يجرى هناك عن بعد فى القرية النموذجية ..

كان الجميع يلحون على العمدة أن يعطى اشارة بدء الهجوم ليزحفوا الى القرية النموذجية ، فيقبضوا على كل من فيها ، ويحرقوها ويدمروها تدميرا ..

ولكن العمدة رفض كل مطالبهم .. وجلس القرفصاء يفكر تفكيرا متصلا وهم من حوله ينتظرون ، ثم وقف العمدة فجاة ، وقال لهم :

ــ انا رايح للاميرة .. لوحدى ..

وارتفعت صيحات الاحتجاج والمعارضة من حول العمدة ، ولكنه رفع صوته مزمجرا معلنا انه اتخذ قرارا لا رجوع فيه ، وانه يامرهم بالتزام السكون ، حتى يذهب ويقابل الاميرة ويعود ..

ثم انطلق العمدة فى طريقه نحو القرية النموذجية ..

كانت القرية النموذجية فى حالة هستريا ..

الاميرة سكرانة ، وحولها خمسة من الشبان الامريكيين ، ومعهم المهندس وبعض رجال الاثار ، وسيدات الجمعيات النسائية ، اللاتى اشرفن فى الصباح على غسل الفلاحين بالماء والصابون ، والباسهم الجلاليب البيضاء الجديدة ..

وكانت السيدات فى ملابس السهرة ، فبعد ان فرغن من عملهن ، عبرن النيل الى ونتر بالاس ، حيث أبدلن فساتين السهرة ، بملابس العمل البيضاء ، وتعطرن وتزين ، وعدن مسرعات للترحيب بمقدم الاميرة ..

اما الفلاحون ، فكان يبدو عليهم الاعياء الشديد ، لقد أحضروهم على عجل من حقول الشاطىء الشرقى ، وبعد أن فرغوا من الاستحمام وارتداء الجلاليب ، صدرت اليهم الاوامر بالجلوس القرفصاء ، فى صفوف طويلة ، وقد وقف عليهم العسكر يحرسونهم ، ويمنعونهم من التحرك . لا يستطيع واحد منهم ان يجلس خشية ان تتسخ ملابسه بتراب الارض . ظلوا جالسين القرفصاء ثمان ساعات او اكثر ، بلا طعام ولا شراب كانهم دمى خشبية .. حتى اقبلت الاميرة فى المساء ، بموكبها الامريكى ، فانتفض الفلاحون صادعين للاوامر وانطلقوا يهتفون ويضجون ويرقصون ويصفقون .. كانت حركاتهم مبالغا فيها ، لا من اجل عيون الاميرة ، ولكن لتعويض الساعات الطويلة التى قضوها بلا حراك .. كانوا ينفسون عن انفسهم ويفرجون عن الكبت الذى عانوه وهم جامدون كالتماثيل فانطلقوا صارخين ملوحين ، كان شيئا ينفجر فى داخلهم ..

ونظرت الاميرة الى أصدقائها الامريكيين فوجدتهم فى ذهول من الاستقبال الحماسى .. ففرحت لذهولهم ، وأمرت تابعها الذى يقف وراءها ، فصب لها الويسكى من ترموس يحمله معه ، وشربت فى نهم ، وهى تتخيل نفسها فى مغامرة عجيبة فى ادغال وسط افريقيا .. والفلاحون هم الزنوج الذين تراهم فى أفلام طرزان ..

والتفتت الاميرة الى الشاب الامريكى الذى يجلس الى يمينها وقالت له فى انفعال بالانجليزية :

ــ انى لست خائفة .. لا اظن انهم من اكلة لحوم البشر

فاجابها الامريكى ضاحكا :

ــ ارجو ان يتحقق ظنك ..

فبان التردد على وجه الاميرة ، وتلفتت حولها ثم همست فى اذنه قائلة :

ــ على اية حال ، نحن فى حراسة قوية ..

وهتف الامريكى على شمال الاميرة :

ـ انها ليلة مثيرة حقا ، هل يوجد فى هذه المنطقة حيوانات مفترسة ؟

فقالت الاميرة على الفور لتطمئن نفسها :

ـ ان الاسود لا تقترب من هذه الضجة ..

وكان الفلاحون ، قد بدأوا رقصا منتظما بالعصى فى حلقات متناثرة فى ساحة القرية ، ووسط هذه الحلقات ركب بعض الفلاحين الخيل ، يرقصون بها على انغام المزمار والارغول ..

واقترب المهندس من الاميرة وقال لها بالفرنسية :

ـ ارجو ان تكون سمو البرنسيسة راضية عن هذه الليلة

فتلفتت الاميرة الى اصدقائها ، ثم قالت :

ـ ان اصدقائى مسروورن جدا ، وانا ايضا مسرورة ..

وفجأة ارتفعت ضجة فى احد اركان الساحة ، وشوهد عساكر كثيرون يجرون نحو مكان الضجة . ووقف الامريكيون فى فزع ، بينما تصلبت الاميرة على مقعدها لا تقوى على الحراك وجرى المهندس يستطلع الخبر .. وتوقف الفلاحون عن الرقص وساد المكان صمت رهيب ..

كان عمدة الجبل يريد اقتحام الساحة ، ومن حوله العساكر يمنعونه ، ولكن الرجل العجوز قاومهم كالطود ، لم يتزحزح من مكانه ، وهو يزأر فى الرجال الذين يعترضونه .

ـ انا جاى اجابل الاميرة .. متجربش لاضربك .. والله اضربك ..

كان العمدة يلوح بيده ، متوعدا من يمسه بضربه ، وعيناه صارمتان ترسلان بريقا من اللهب ..

وعاد المهندس يلهث ، وقد تذكر انه ترك الاميرة بغير استئذان .. وانحنى امامها قائلا بالفرنسية :

ـ انى آسف يا سمو البرنسيسة . ان الرجل العجوز عمدة الجبل .. يريد ازعاج سموك بالحديث اليك ..

فقاطعه احد الامريكيين فى مرح :

ـ ولماذا لا يأتى .. انه شىء مسل ان تتحدث الى واحد من هؤلاء المخلوقات .. هل هو الزعيم ؟

فأجاب المهندس مترددا :

ـ نعم انه الزعيم .. ولكنه رجل ماكر ..

فصاح الامريكى فى مرح :

ـ كزعيم الهنود الحمر عندنا .. احضروا بعض الخرز وقطع السكر قدموها هدية له .. انه سيفرح بها جدا ..

وابتلعت الاميرة كاسا آخر من الويسكى وأمرت باحضار العمدة اليها ..

كانت الخمر قد اذابت افكار الاميرة ، فاختلط الخيال بالواقع فى رأسها .. لم تكن تعرف بالضبط ، فى أى مكان هى ، ولا المناسبة التى جاءت بها الى هذا المكان .. كل ما تحسه ، هو ان شيئا مثيرا جديدا يدور حولها ، وان الضجة والصرخات والرقص والخيل .. كل هذه الاشياء تحرك الملل الكامن فى داخلها ، وتثير فى جسدها نشوة جديدة . نشوة تنطفىء مع الفجر ، ويحل مكانها ملل جديد .. ملل ثقيل .. يبحث عن مغامرة جديدة ونشوة جديدة ..

ورأت الاميرة ، صورة العمدة ، فى جسمه الطويل الاسطورى وهو يتقدم منها ، محاطا بالمهندس وبعض العساكر ، بينما صدرت الاوامر باستئناف الرقص فى الحال .. ووقف الامريكيون ينظرون فى ترقب يشوبه الحذر والقلق ، واتجه العمدة الى الاميرة ، ومد يده اليها ، وقبض بها بقوة على يدها وشد عليها بقوة سرت معها رعشة احست بها الاميرة فى ذراعها وفى ارتجاج ثدييها ، وفى تقلص بطنها وسرت الرعشة كالكهرباء فى ساقيها ..

وابتلعت الاميرة كاسا اخر فى جوفها .. وقالت ضاحكة بالفرنسية :

ـ دعوه يجلس الى جانبى ..

كانت الرعشة التى سرت فى جسد الاميرة ، سببا لاعجابها بالعمدة .. بالرجل ، كانت تنظر اليه ولا تراه .. كانت تتخيله .. قوة من الرجولة لم تعرف لها مثيلا من قبل ..

وتحولت الاميرة الى أنثى .. اطلقت ضحكات ناعمة لينة ، وبرزت ثنايا جسدها .. وتراخت على مقعدها ، واكتست عيناها بغشاوة من الرغبة الناعسة .. ومدت أطراف أناملها تداعب بها ذقن العمدة وهى تقول له بالفرنسية :

- آه .. يافارسى الجميل ..

وشعر العمدة بزهو الرجل العجوز ، الذى تداعبه صبية صغيرة حسناء ، وضحكت عيناه ، وانفرج فمه عن ابتسامة كشفت عن اسنانه الصفراء ..

وقال امريكى للاميرة فى لهفة :

- يبدو انه من آكلى لحم البشر

فاجابت الاميرة بضحكة عصبية :

- لاشك أنه يريد أن ياكلنى الليلة .

وقال امريكى اخر :

- يبدو انك لا تمانعين ..

فصاحت الاميرة :

- ابدا .. ابدا .. فلياكلنى هذا الفارس الجميل ..

ومدت يدها تداعب عمامة العمدة ..

فتراجع العمدة براسه ونبهه عبث الاميرة بغطاء راسه .. الى وقاره وكرامته فتنحنح وقال مواجها الاميرة بصوت جرىء :

- اسمعى يا اميرة .. جولى للملك .. احنا موش اثارات .. احنا منتنجلش من الجبل .. احنا كبرنا وبجينا زى السجر ، وان اتنجلنا نموت ..

ولم تفهم الاميرة سوى كلمة « الملك » فسالته فى دهشة :

- انت تعرفه ؟

فاجابها العمدة فى أسى :

- الكبارات ان جم هنا .. يشوفوا الاثارات ولا يشوفوناش

والتفت العمدة ناحية المهندس وقال مشيرا اليه :

- والراجل ده بيضربنا .. والبنايات دى متنفعناش .. الراجل ده نصاب .. والرجالة اللى بيرقصوا موش رجالتنا جابوهم من الشط الشرجى .. دول فلاحين يا اميرة ..

ولم تفهم الاميرة سوى أن المهندس « نصاب » وأعجبت الاميرة بالكلمة .. فاشارت الى المهندس ، وقد طفرت الدموع من عينيها من الفرح وهى تصيح بالعربية :

- انت نصاب .. بيقول انت نصاب .. لازم يموتوك ويكلوك علشان انت نصاب ..

وسال اكثر من واحد من الامريكيين فى فضول :

- ماذا يقول .. ماذا يقول ؟

كانوا ينظرون الى العمدة كمعجزة .. أو كلعبة غريبة ، تصدر عنها حركات وكلمات عجيبة ، وكانوا لا يريدون أن يفوتهم شىء مما يصدر عن هذه اللعبة ..

وقالت الاميرة لاصدقائها ضاحكة :

- سنشاهد الان منظرا فريدا .. ان العمدة يقترح أن ياكل المهندس ما رايكم ؟

وصدقها الامريكيون .. وضحكوا فى انفعال وهم يكتمون انزعاجهم بصعوبة ..

واستانف العمـــدة يشرح مشكلته :

- كيف تعيش فى البنايات .. ح ناكل كيف .. دا عملها جبب « قباب » .. والجبب ما يرجدش تحتها الا الاموات .. وعامل لبهايمنا غرف ، واحنا خلونا ننام جنب بهايمنا .. ما نستريحش الا لما الواحد ينام ويشوف بهيمته نايمه جصاده ولا نسيبهـا تتخطف واحنا ما ندراش ... وجال بيجولوا انزلوا جنب اللمية .. لكن كيف ناكل .. لا زرعه نزرعها ولا شغله نشتغلها . نبعد عن الاثارات ، وعيشتنا على جرشين ناخدهم من السواح .. واحنا بنحرس الاثارات والا نسيبها للاشرار والمجرمين .. دا جبل يا اميرة .. بلاش كلامى انا .. الست الفرنساوية تجولك ست طيبة بتجطر على عينين العيال .. كلميها .. شوفى جالت آه .. جالت عايزين ينزلوكم تحت علشان يفرجوا عليكم كبارات البلد والسواح .. ويجوللهم احنـا مذناهم .. واحنا فى الحجيجة موش لاجيين ناكل ..

كانت الاميرة وأصدقاؤها ينظرون الى العمـدة وهو يتكلم ويشير بيديه فى حماس كانه راقص باليه ، أو ممثل تراجيديا صينية غير مفهومة ..

وطوقت الاميرة عنق العمدة بذراعها البض ، وصاحت :

- برافو .. مدهش .. تشرب واحد ويسكى ؟

وعرف العمدة انها تريد ان تقدم الخمر له .. واحس بغريزته انها تسخر منه .. واجتاحته ثورة الغضب . فوقف وامسك بكتفيها ، والجميع فى ذهول . تجمدوا فى اماكنهم لا يتحركون لانقاذ الاميرة ..

وصاح العمدة غاضبا :

ــ البنايات دى للمسخرة وشرب الخمر يا اهل جهنم .. تيجى ومعاكى شنطة ومراية تعلجيها فى الحيطة ، وتنامى ليلة وتمشى .. احنا ما نجمدش فيها يا كفرة .. يا جلالات الدين ..

ثم ترك العمدة كتفى الاميرة .. ونظر الى المهندس متحديا وقال منذرا متوعدا :

ــ رجالتك لو جمدوا هنا الليلة .. ح نضرب فيهم .. وح يصير بيننا وبينك دم ..

وانطلق العمدة فى طريقه خارج الساحة .. والاميرة تسأل فى خوف بالفرنسية :

ــ ماذا يقول .. لماذا هو غاضب ؟ ..

وادرك المهندس ، انه لو طلب من العسكر القبض على العمدة فى الحال ستدور معركة رهيبة والاميرة ما زالت فى القرية انهم ولا شك محاصرون بأهل الجبل ، يتحفزون للوثوب عليهم فى أية لحظة ..

وهمس المهندس فى اذن احد الامريكيين :

ــ أرجو أن تنسحبوا مع الامــيرة .. ان الموقف خطـير ، ووافق الامريكى بسرعة ، وتشاور مع اصدقائه .. ثم اقنعــوا الامـيرة بالانسحاب ..

وانفض الحفل . ولجأ الجميع الى شاطىء النيل ، كفلول جيش مدحور يهرع رجاله الى العربات والمراكب للفرار فى اسرع وقت ..

ولم يبت احد تلك الليلة فى القرية النموذجية .. حتى المهنـدس صحب الاميرة الى ونتربالاس ، وقضى ليلته هناك.

***

كان العمدة يروى لى قصته مع الاميرة فاتخيل ما حدث ، وتدور فى رأسى الصور والمرئيات وازداد احتراما للرجل الذى أجلس الى جواره واشعر برهبة نحوه ، لم اشعر بها نحو انسان آخر فى الوجود ..

كنت اقول لنفسى لو سألنى احد ما هو تعريف الرجل الحقيقى

هذا العالم .. لاجيبه على الفور .. انه عمدة هذا الجبل

وغمرنى احساسى بالقرف من مهمتى ، ما هذه السخافة التى جئت من اجلها ، ماذا أستطيع أن أفعل فى مشكلة من هذا النوع ، ماذا يريد منى مدير التحقيقات . انه فى الحقيقة لا يريد شيئا على الاطلاق .. كل ما يريده هو ان ياخذ الروتين مجراه .. شكوى قدمها رجل اسمه حسين على من اهالى الجبل ، يعلن فيها ان اهل الجــرنة لا يريدون النزول الى القرية النموذجية .. ويعلن عن وجود سرقات واختلاسات فى مواد بناء القرية ..

ان واجبى كموظف حكومة ، وكمفتش للتحقيقات ، هو ان استدعى حسين على واسأله : تلك الاسئلة الخالدة فى كل تحقيق . ما اســمك وما عمرك : وما هى صناعتك ، وما هى تفاصيل شكواك .. وعلى بعد ذلك ان اطلب انتداب بعض المفتشين الاداريين لتشـكيل لجنة جرد عهدة القرية النموذجية ، وعلى هذه اللجنة أن تقرر اذا كان هناك اختلاس أم لا ، فاذا لم يكتشفوا اختلاسا قرروا حفظ الموضـوع وسجلت ادارة التحقيقات انتهاء التحقيقات فى احدى القضايا ...

وانتهت دوشة الدماغ ، على الرغم من بقاء المشكلة الحقيقية كما هى .

ايقنت انى لا اقوم بتحقيق . انى اقوم بتزوير مشاعر العمدة ومشاكل اهل الجبل ، ومتاعبهم التى يعانون منها ، وفقرهم الذى يقاسون منه واملهم الذى يبحثون عنه فى بطن الجبل

ان مهمتى كمفتش للتحقيقات ، هى طمس كل هذه الحقائق .. وتحويلها الى مجرد اسئلة سخيفــة ، يجب ان أراعى فيهــا ــ بكل لباقة ــ عدم الدخول فى التفاصيل ، التى تمس الاميرة ، والنفا الذى يوجهه أهل الجبل الى القرية النموذجية كمشروع يحظى برعايتها ..

تخيلت مدير التحقيقات ، وهو يقرأ ، المذكرة التى اقدمها له عن التحقيق .. أن الحكومة اقامت المشروع وانفقت عليه الاموال ، دون أن تفكر فى عمل يقوم به اهالى الجبل بعد نزولهم القرية .

سترتجف يد المدير وهو يمسك بالمذكرة ، وسيقول لى ساخرا :

ــ انت عامل مصلح اجتماعى والا ايه .. دا موش شغلك يا استاذ .. انت تحقق فى التهم المرجهة بس . فيه اختلاس والا مفيش .. دى كل مهمتك .. احنا مالنا ومال ان كان فيه شغل والا مفيش ..

روح غير المذكرة دى .. والا اكتب واحدة تانية ، انا ح اقطع المذكرة دى .. لحسن نترفد كلنا وتبقى مفيش حـــاجة اســـمها ادارة تحقيقات ..

ثم سيمسك المدير بيدى ويقرب فمه من اذنى ويهمس قائلا :

ـ لو وكيل الوزارة شاف المذكرة دى .. ح يقول عليك شيوعى ..

وسافزع ولا شك من هذه التهمة .. لانى لا اريد ان يقبض على ، واقضى بقية حياتى فى السجن ، وساكتب مذكرة اخرى خالية من كل الحقائق التى لمستها ، والتى اشعر بها محفورة فى قلبى ، وساشـــم بعد ذلك رائحة عفن تتصاعد من داخلى . رائحة ضمير ميت ..

وخرجت من افكارى على صوت العمدة يقول لى فى صوت أبوى :

ـ مالك يا ابنى .. انت تعبـــــان .. الشمس غابت ولا كلتش لجمـــة ..

كان يكلمنى فى حنان غريب .. حنان مفاجىء .. كالزرع الاخضر الذى ينبت بغتة وسط الرمال والصخور الجافة المحيطة بنا ..

واشار العمدة بيده ، والتفت ورائى الى حيث يشير ، فوجـــدت امراة تتقدم منا ، تحمل بين يديها « مشنة » عليها الطعام .. وكانت قد جاءت به ، وقبعت فى مكانها فى انتظار اشارة العمدة ..

واكلت مع العمدة ، العدس والجبن والبرتقال .. اكلت فى نهم ، دون ان افكر فى قذارة الطعام ، او فى الصدأ الذى يلصق بالصحون ..

وشاع المرح فى حديث العمدة .. سالنى وهو يجول باصابعه فى طبق العدس ..

ـ انت متجوز ..

ـ لسه يا عمدة ..

فصاح العمدة :

ـ وايه اللى معطل حالك .. ستنى لما تكبر والصبايا الزين متطلش فى وشك

فسألته بدورى :

ـ وانت متجوز يا عمدة ؟

فرفع يده الى السماء وقال:

ـ كتير ... كتير يا ولدى ..

ـ كام واحدة اتجوزتها ..

فنظر العمدة الى الافق .. ليتذكر عدد زوجاته . ثم عـــدل عن التفكير وقال فى ياس بعد ان استعصى عليه الحساب :

ـ كتير .. كتير ..

ـ وآخر واحدة اتجوزتها ..

فتنهد العمدة فى أسى :

ـ الله يرحمها .. ماتت صغار .. وبعديها متجوزتش ..

ـ ماتت ليه .. كانت عيانة ؟

فتردد قليلا ثم قال .

ـ عمرها ما مرضت ..

وسكت العمدة ولم يضف الى كلامه شيئا .. وتركنى نهبا للخواطر .. هل قتلت ؟.. أم ماتت فى حادث ؟

ونظرت الى العمدة ، فرايت وجهه ساهما لا يريد الافصـــاح من شىء ...

وضايقنى انى ازعجه ، ان طبيعتى كمحقق ما زالت تلازمنى وتدفعنى الى توجيه الاسئلة والالحاح فيها .. حتى اصبحت اتنسم نفـــوس الناس ، واتطفل على مشاعرهم ، حتى وانا اشاركهم الطعام ..

ان العمدة يناديني « يا ولدى » لانه لا يستطيع ان يعاملنى معـــاملة رسمية . فهو يقسم الناس الى غرباء واصدقاء . اعداء واقارب ... ناس يكرههم وناس يحبهم .. عواطفه ومشاعره مدربة على معاملة البشر لا الموظفين .. مجتمعه الذى يعيش فيه لا يعرف المجـــاملات والتقاليد الاجتماعية .. انه يمنحنى الان قلبه ، ويظن انى امنحه قلبى .. ونحن نتشارك العيش والملح معا فى طبق واحد . ومع ذلك ، ها انذا عاجز عن الارتفاع الى المستوى الذى يعاملنى به العمدة .. ما زلت لا اعرف كيف اتخلص من هذا الموظف المحقق الذى يكمن داخلى .

وفرغنا من الطعام ، ومشينا فى اتجاه الكهوف .. وانا افكر بينى وبين نفسى فى طريقة لبقة اسال فيها عن « حسين على » دون ان اشعره بانى مفتش للتحقيقات .. وما زلت صديقا له ..

وعلى امتداد الافق رايت على الضوء الشاحب بعد الغروب حلقتين كبيرتين متباعدتين من الرجال والنساء .. الرجال وحدهم ، والنساء

وحدهم .. وهم جميعا يجلسون القرفصاء فوق الرمال ..

ودققت النظر الى الحلقتين البعيدتين ، ولم أصدق ما رايته .. انهم يقضون حاجاتهم .. انهم الان فى الترالينت .. فى مراحيض الجبل ..

ولم أستطع ان امنع نفسى من سؤال العمدة :

ـ بيعملوا ايه يا عمدة ؟

فاجاب العمدة فى بساطة :

ـ تعال يا ولدى نجعد معاهم ونتسامروا ..

ووقفت فى مكانى لا أتزحزح . كنت على استعداد لان اصنع كل شىء ، الا ان اخلع بنطلونى . واجلس مع الرجال اقضى حاجتى فى حلقة سمر ..

وقلت للعمدة مستعطفا .

ـ اعمل معروف .. اعفينى من الحكاية دى.

فضحك ملء شدقيه وصاح :

ـ انا بضحك عليك .. انتوا يا رجالة البندر متجدروش تعملوا زينا كده ...

كان يضحك ، وكانه لا يكترث بشىء فى هذا العالم .. وكانت ضحكاته تذكرنى بان الليل قد اقبل ولابد لى من العودة

واستجمعت شجاعتى وقلت له :

ـ الوقت اتاخر يا عمدة .. وفيه حاجه لازم اكلمك فيها .. حسين على فين ؟

ورد العمدة فى صوت خفيض :

ـ حسين على .. حسين على ..

فقلت له لاشجعه على الكلام :

ـ اللى كتب الشكوى بالنيابة عنكم ..

وواجهنى العمدة قائلا :

ـ احنا اشتكينا كتير ..

ـ لكن فيه شكوى كتبها حسين على ..

ـ وانت عايز ايه منه ؟ .

ـ عايز اسأله عن الشكوى اللى كتبها

فهز العمدة راسه فى عجب وقال :

ـ حسين على لا يعرف جراية ولا كتابه

وهتفت فى فرح ولهفة :

ـ يعنى حسين على موجود .. ممكن اكلمه .

واطرق العمدة برهة ثم قال :

ـ ما اعرفش هو موجود والا سافر .. استنى شويتين اناديلك مراته ..

وتركنى العمدة بالقرب من الكهوف الخالية . واسرع مبتعدا فى اتجاه حلقة النساء .. وسمعت صياحه مناديا :

رايت امراة تخرج من حلقة النساء ، وتتقدم ناحية العمدة وما كادت تقترب منه ، حتى سالها بصوت عال :

ـ جوزك فين ؟..

ـ سافر ..

ـ سافر فين ؟..

فقالت المراة وهى تتقدم منا :

ـ راح الواحات ..

ـ واحة ايه ؟

ـ ما اعرفش ..

ـ دانتو متجوزين من جمعه يا بت .. سافر كيف ؟

ـ ما اعرفش ..

ورايت المراة عن قرب . صبية صغيرة لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها ، ملامح وجهها طيبة حزينة ، لها شفتان غليظتان واسعتان وجسم قصير نحيل .. انها عروسة .. عروسة هجرها زوجها بعد اسبوع من الزواج ، وسافر الى واحة مجهولة ..

وشعرت بالغيظ نحو حسين على وقلت لها :

ـ وح يرجع امتى حسين على ؟

فاجابت بنفس النغمة الهادئة :

ـ ما اعرفش ..

ـ وانت موش زعلانه علشان سابك وسافر .

ولم تجب على سؤالى .. خيل الى انها لم تفهمه ..

والتفت العمدة الى وقال :

ـ اجيب لك راجل تانى ..

فقلت له :

ـ لا .. انا عايز حسين على

واحتج العمدة ..

ـ كلتنا شاكيين المهندس ..

معلهش يا عمدة انا لازم ارجع دلوقت ..

وحاول العمدة ان يقتعنى بقضاء الليلة معهم .. ووعدنى بالاستماع الى غناء ورقص طوال الليل ، ولكننى صممت على العودة ..



الفصل السادس

لم يفلح العمدة فى اقناعى بالبقاء ليلا فى الجبل .. كان الظلام يحدق بنا فى سرعة مخيفة ، وكل الاشياء من حولى تغوص شيئا فشيئا فى سواد معتم ، فاحس بدافع ملح الى مغادرة المكان فى الحال ..

لقد توطدت الصداقة والالفة بينى وبين العمدة ، ولكن شيئا لم يتوطد بينى وبين الجبل نفسه .. انه موحش خشن لا ادرى كيف اطمئن اليه واستسلم الى صخوره وكهوفه وسحاليه وعقاربه ، طوال فترة الظلام ..

وكانت زوجة حسين على لا تزال واقفة تنصت الى العمدة وهو يلح فى بقائى .. ولعلها كانت ترحب مع العمدة ببقائى ، او لعلها ـ وهو الاغلب ـ وقفت تنتظر لتتاكد من انصرافى من الجبل ..

كان شيئا مريبا يحوم حول هذه الزوجة الصبية التى تدعى ان زوجها هجرها فجاة بعد أسبوع من زواجه منها .. وهى فى نفس الوقت تبدو قانعة مستسلمة ، كان ما حدث شىء عادى ومتوقع ..

وخطر لى انها تكذب .. ولكن لماذا تكذب .. ولماذا يكذب العمدة ايضا .. انه رجل صريح لا يخاف احدا ، ولا شك انه لو كان يعرف حسين على ، وانه فى الجبل لناداه وقدمه لى .. ان العمدة لا يخشى منى شرا .. فانا هنا وحيد ليس معى احد وفى حمايته ..

والتفت العمدة الى زوجة حسين على وتقدم منها ، وعجبت له وهو يهمس فى اذنها بكلمات لم اسمعها انصرفت على اثرها المراة على عجل ..

وعاد العمدة الى ، وقبض على ذراعى ومضى بى الى الاريكة التى

كنا نجلس عليها وهو يقول :

ـ الشيخ طلباوى جاى هو وحمارته ، تركب عليها وتوصلك لحد المركب ..

وسألت العمدة فى قلق :

ـ الشيخ طلباوى جاى معايا طبعا ..

فضحك العمدة :

ـ الشيخ طلباوى حيوصلك لحد البر الشرجى .. دا راجل متعلم فى سيوط وعايش هناك مع مرته .. وبيجى يزور كل شهرين والا تلاته .. والليلة راجع لاسيوط ..

ودهشت كيف لم ار هذا الشيخ فى النهار ، وكيف لم يسرع الى لقائى وهو الرجل المتعلم بين أهل الجبـل ، وهو اقدرهم على الكلام والافصاح عن شكواهم .. وطرات لى فكرة ، قررت ان انفذها عندما انفرد بالشيخ طلباوى فى طريق العودة ..

واقبل علينا شيخ معمم ومعه زوجة حسين على وحمارة مسرجة تتقدمهما ..

كان الشيخ لا يتجاوز الثلاثين من عمره ، نحيفا رشيقا ، انيقـا فى ملابسه عمامته نظيفة تميل قليلا على حاجب عينه اليمنى .. له عينان جذابتان ماكرتان ، وانف مستقيم ، وشفتان غليظتان ولكنهما لا تؤثران فى وسـامة وجهه .. وكان يتكلم باللغة الفصـحى .. وشعرت فى الحال انه يتباهى بنفسه على اهل الجبـل . ولمحت العمدة ينظر اليه فى اشمئزاز صريح

وما كاد الشيخ يفرغ من مصافحتى .. حتى قال له العمدة فى صوت لاذع ساخر :

ـ مع السلامة يا ولد طلباوى .. يا عارك يا راجل .. غرضك تاخد أختك تخدم على مرتك فى سيوط ..

وادركت على الفـور ان زوجة حسـين على هى شقيقة الشـيخ طلباوى ..

وقال الشيخ طلباوى فى ارتباك .. وباللغة العربية :

ـ انتهى الامر يا عمدة . لا داعى لاثارة المشاكل امام البيه .

ولم يرحم العمدة ارتباكه .. صاح فيه بقسوة :

ـ الفجر مايعيبش الرجالة يا طلبـاوى .. مرتك تخـدم على نفسها ..

فقاطعه الشيخ فى انفعال :

ـ يا عمدة جلت لك خلاص انتهينا .. هى تجعد هنا كما تريد .. وانا اجعد فى أسيوط كما أريد ..

وعدل العمدة فجاة عن هجومه وقال له فى لهجة الآمر :

ـ وصل الافندى لحد الشط الشرجى

فاسرع الشيخ يقول لى فى تملق :

ـ هذا شرف كبير يا سعادة البيه .. انا خدامك ..

ومرة اخرى لمحت نظرات الاحتقار تشع من عينى العمدة . وتكاد تحرق جسد الشيخ طلباوى ..

وصافحنى العمدة فى شوق كبير ، وساعدنى على ركوب الحمارة وقد غلبه تاثر كبير لفراقى .. ان وجهه الملىء بالغضون لا يخفى شيئا من مشاعر قلبه .. انه على الرغم من مظهره الخشن الجاف .. مخلوق شناف ..

وسلم الشيخ طلباوى على شقيقته وودعها فى برود .. ثم لكز الحمارة .. فانطلقت فى طريق العودة ، والشيخ يهرول الى جانبى محاولا ان يلائم بين سرعته وسرعة الحمارة ..

ولما ابتعدت الحمارة حوالى مائة متر ، التفت ورائى فرأيت العمدة ما زال واقفا ينظر نحوى فى صمت ، ولوحت له بيدى ولكنه ظل جامدا لا يتحرك من مكانه ومن خلفه تقف زوجة حسين على صامتة جامدة هى الاخرى .. كانهما تمثالان ..

وتوغلنا فى الطريق الصحراوى ، وفى ظلام الليل ، ولم اعد أسمع سوى دبيب الحمارة ، ووقع اقدام الشيخ طلباوى على الارض ، وصوت الريح التى كانت تهب جافة قوية ..

ووجدت الفرصة مناسبة لاتحقق من الفكرة التى طرات لى من الشيخ طلباوى

سألته فجاة فى سذاجة تامة :

ـ خطك اللى كتبت بيه الشـكوى كان جميل قوى يا شـيخ طلباوى ..

وتهلل وجهه فرحا .. لقد وقع فى الفخ .. انه كاتب الشكوى

الموقعة باسم حسنين على الذى لا يعرف القراءة والكتابة

ثم غاضت الابتسامة من شفتيه ، وظهر القلق فى عينيه . ادرك بسرعة أنه فضح نفسه ..

وفتح فمه ليقول :

ــ العمدة هو اللى ..

وقبل أن يكمل حديثه .. كنت اقول له بصوت عال يغطى على صوته ، حتى لا اسمع انكاره لكتابة الشكوى . ولاشجعه على التورط فى الاعتراف ..

صحت قائلا :

ــ اسمع يا شيخ طلباوى .. انا عارف انك موش موافق على الشكوى .. وعلى العموم انت مالكش دعوة . لانك موقعتش عليها ..

فانطلق فى الكلام وهو يلهث :

ــ سيدى .. والله وأنا اقول لك الصدق ، انا على طول مقامى معهم ، وكونهم اهلى ، لم استطع ان اقنعهم .. لقد الحوا على فكتبت الشكوى لانى الوحيد بينهم الذى يقرأ ويكتب .. انا يا سيدى مدرس بملجأ الايتام باسيوط . صحيح يا سيدى البنايات لا تنفعهم .. وان لقمة العيش تمسكهم هنا فى الجبل ولكن لو سالتنى رايى .. لو كان لى شرف التحدث الى المسئولين لطلبت لهم نصيبا من اموال البر .. ومن عيون الخير لقد أوصى الرسول عليهم وهم قوم فقراء .. ولكنهم يحتجون على .. انهم مجانين يا سيدى .. لو رضوا بالنزول الى القرية الجديدة لرضى عنهم المهندس والاميرة . انها اميرة عظيمة يا سيدى ذهبت اليها فى ونتر بالاس ورفعت الى مقامها السامى قصيدة كتبتها ترحيبا بمقدمها ، فنفحتنى خمسة جنيهات ..

ولكنهم معذورون .. انهم جهلاء كما لاحظ البيه . لا يعرفون شيئا عن المدنية والحضارة ، ويوردون انفسهم موارد التهلكة

وشعرت بحنين جارف الى العمدة وانا استمع الى الشيخ طلباوى .. وكان يثير فى نفسى التقزز ..

واستمر يتكلم ويتكلم ، ويكرر ما قاله .. ثم سكت فجاة واطلق صرخة مدوية فى ظلام الليل ، واطلقت انا صرخة بلا صوت لم تخرج من فمى فمزقت صدرى رعبا ..

برز امامنا فجاة رجل يسد الطريق يتقدم منا فى ثبات ، وكان الشيخ طلباوى قد تشبث بالحمارة التى وقفت مكانها وأنا معلق فوقها لا أدرى كيف أتصرف ..

وهجم الغريب القادم على الشيخ طلباوى .. واطبق بيديه على عنقه وهو يقول له :

ــ ان جيت هنا تانى ح اجتلك يا طلباوى ..

والشيخ يردد فى ذلة :

ــ حاضر .. حاضر يا حسين ..

ثم التفت الغريب الى وقال فى صوت ملؤه بالكبرياء .

ــ انا حسين على ..

وفى صمت هبطت من فوق الحمارة بمساعدته .. كان طويلا فارعا ، بياض عينيه يلمع فى الظلام ، يلبس جلبابا ابيض وخفا فى قدميه .. ومد يده الى وصافحنى بقوة .. وهو يقول :

ــ بيجولولى غرضك تتكلم معايا ؟

ولم ينتظر ان يسمع شيئا منى .. عاد والتفت الى الشيخ الملعون وقال له مزمجرا :

ــ بتجول ايه للافندى يا طلباوى ..

وصاح الشيخ مدافعا عن نفسه :

ــ وكيلك ربنا ما جلت له حاجة ..

كان الشيخ قد فقد لغته العربية الفصحى فى غمار ارتباكه وذعره .. ونظر الى مستنجدا كأنه يتوقع انى قادر على الدفاع عنه فى هذا الوقت . .

ولزمت الصمت ..

كنت بدورى افكر فى مصيرى بعد هذا اللقاء المفاجىء بحسين على .. انه مختف عن الانظار لسبب ما .. سبب خطير ولا شك وها هو يخرج من مخبئه ، ويكشف عن شخصيته امامى ، هل سيتركنى بعد ذلك أمضى فى سبيلى ، ام انه سيتخلص منى حتى يظل محافظا على اختبائه وقصة سفره الى الواحات ؟

انى لا اعرف سببا واحدا يدعو حسين على للاختباء ، ولا أعرف تهمة موجهة اليه ، فلا استطيع اذن الحاق اى ضرر به . ولكن

كيف اقنعه بهذا المنطق ؟ انه يستعمل يديه وعضلاته القوية ، ونظراته الشاربة فى التعاهم مع الشيخ طلباوى ، هذا هو منطقه الوحيد فيما يبدو لى ..

انى فى مازق ..

واصر حسين على ان يتركنا الشيخ ، لانه لا يريدنى ان استمع الى كلامه ، أو اسير فى صحبته .. زعق فى الشيخ ان ينصرف ، والشيخ يقول له فى مذلة ، ان العمدة هو الذى طلب منه مرافقتى الى الشاطىء الشرقى ، ولكن حسين على لم يكترث بكلامه ، وطرده وهو يكرر تحذيره له ، بالا يعود ثانية الى الجبل ، اذا اراد المحافظة على حياته ..

وانصرف الشيخ طلباوى ، وانا ما زلت واقفا الى جوار الحمارة انتظر الخطوة التالية التى سيقدم عليها حسين على .. انها الخطوة التى ستقرر مصيرى ..

ووقف حسين على يتاملنى برهة .. ثم افتر فمه عن ابتسامة واسعة ، لمعت لها أسنانه البيضاء وسط ظلام الليل . وفاجأنى بقوله فى لهجة عتاب :

ـ ليه مجعدتش معانا الليلة يا افندى

فقلت له وقلبى يخفق بالانفعال :

ـ العمدة قال لى انك سافرت الواحات

فضحك حسين على قائلا :

ـ العمدة راجل عجوز .. بيخاف علينا كلتنا .. واحنا مجلناش للشيخ طلباوى يكتب اسمى فى الشكوى . جلنا له اكتب ان احنا كلتنا شاكيين المهندس . ولما سالت عنى بالاسم العمدة ظن ان الشيخ طلباوى عملها وغرضه يودينى النيابة ..

وسالته :

ـ وعاوز يوديك النيابة ليه ؟

فأجاب حسين فى ضيق :

ـ غرضه ياخد مرتى معاه مبسوط .. خزيان بعد ما تعلم من عيشتنا هنا .. ماكنش غرضه انى أتجوزها ..

وشعرت بصدقه وبساطته ، رغم طوله وعرضه وقوته البدنية الظاهرة .. ولكنى لم أطمئن اليه كل الاطمئنان ..

وسالته من جديد :

ـ لكن ايه اللى جابك دلوقت

فرفع صوته فى كبرياء :

ـ جلت للعمدة .. انا راجل مستخباش زى النسوان ..

ثم ثبت عينيه فى عينى وقال :

ـ العمدة اخد عليك عهد الله .. متفضرناش ..

فقلت على الفور :

ـ صحيح ..

وغمرنى احساس قوى ، يشبه اليقين ، ان حسين على له شان فى كل احداث الجبل .. صوته القوى ونظراته الثابتة .. وكبرياؤه .. كل هذا يكاد يثبت انه الرجل الذى قلب « الترولى » وحرق الشونة فى القرية النموذجية ..

وتملكتنى رغبة فى تحدى حسين على .. كبرياؤه كانت تثيرنى ورجولته تستفزنى رغما عنى وتطالبنى بامتحانها ..

كنت اريد امتحان رجولته ، لانى اريد ان المسها ، واراها واضحة جلية امامى .. ان هذا النوع من الرجولة نفتقده فى حياتنا فى القاهرة .. هذه الصراحة المباشرة ، لا نعرفها ولا نقابلها ، هذه القدرة الخارقة على المواجهة وتبادل الثقة بسرعة وبمجرد ترديد قسم أو عهد .. شىء لا نتعامل به فى حياتنا ومن الصعب علينا تصديق وجوده ..

كنت اريد ان اتاكد من وجود هذه الاشياء ، وها هو حسين على يقول لى أنه رجل .. ولم يبق أمامى الا امتحانه لاتأكد من هذه الحقيقة ..

ثم شىء اخر هام .. لو انه رجل حقا ، فلن يقدم على خيانتى ابدا .. لن يقتلنى فى هذا الجبل غيلة ، ليكتشفوا بقايا جثتى صدفة بعد أسابيع ، وقد نهشتها الصقور والذئاب ..

يجب أن أواجهه بصراحة ، كما يواجهنى هو بصراحة .. يجب أن افتح له قلبى ، وأخرج منه كل اسرارى .. يجب أن اكون جريئا معه .. هذه هى فرصتى الوحيدة كى أكسب احترامه ، أن أكون رجلا مثله ، ومن طرازه ، اتجاهل صفتى كمحقق ، وأنسى تماما حيل التحقيق ومكره .. انه سيحس بغريزته اى التواء فى مقاصدى ،

وسيحتقرنى ، واذا احتقرنى فلن يعاملنى معاملة الشيخ طلباوى لقد ابقى على حياة الشيخ لانه شقيق زوجتـــه ، اما انا ٠٠ فليس هناك ثمة سبب واحد تافه ، يدعوه للابقاء على حيـــاتى ، اذا ما احتقرنى ٠٠

ورفعت راسى فى كبرياء تعلمتها من حسين على ومن العمدة واهل الجبل ٠٠ ولم اعرف لها مثيلا فى حياتى فى المدينة من قبـــل ، وقلت له :

ـ اسمع يا حسين ٠٠ احنا دلوقت رجاله بنكلم بعض ٠٠ وأنا اقسمت انى ما اعملش حاجة تضركم ٠٠ وكلت عيش وملح مـــع العمدة ٠٠ تقدر تقول لى ايه حكايتكم بالضبط ٠٠ انت عارف انهم بيقولوا عليكم حرامية بتسرقوا الاثار ٠٠ وعارف انكم متهمين بقلب « الترولل » وحريق الشونة فى قرية المهندس ٠٠ تفتكر الحكومة تسيبكم كده تاخدوا الاثارات ٠ ودى حاجة مهمة للبلد كلها ٠٠ انتم بتبيعوا الاثار . والحكومة « عايزاها » تشيلها فى المتاحف .. دى ملكنا كلنا ٠٠ ملك بر مصر كله ٠٠ ح تعملوا ايه ٠٠ ح تســـتمروا على الحالة دى ٠٠ انتم راضيين بالعيشة دى ٠٠

ولم يجب حسين على فى الحال ٠٠ اطرق براسه ٠٠ ثم رفعها من جديد وقال لى فى هدوء :

ـ انا ح أجولك حكايتنا ٠٠ وانت تحكم بالعدل ٠٠ .

وطلب منى حسين على ان نجلس فى مكان ، يروى لى فيه قصته ٠٠ وامسك بالحمارة وقادها ، ومشيت الى جانبه ، وخرجنا من الطريق الجبلى ، ومضينا وسط الصخور والرمال أنا اتعثر فى مسيرى ، وهو والحمارة يمشيان بسهولة كانهما يجتازان طريقا من الاسفلت فى وضح النهار . ٠

واقبلنا ثانية على الكهوف ٠٠ ورأيت بصيصا متناثرا من النيران من بعد ٠٠ وسمعت اصوات ناى ودف وغناء ٠٠

ان العمدة قد دعانى الى حضور الرقص والغناء معهم ، فرفضت وها انذا عائد اليهم ٠٠

وسالت حسين على :

ـ احنا راجعين تانى للعمدة ؟

فقال لى :

ـ لا احنا نجعد لوحدينا هنا جريبين منهم ٠٠ واجولك كل اللى فى بالى ٠٠

وفك حسين على سرج الحمارة ، ووضعه على الارض كوسادة من الخيش اجلس عليها ٠٠ اما هو فقد جلس القرفصاء ٠٠

كنا متجاورين كصديقين يتناجيان ٠٠ فى جو حالم ٠٠ وأصوات الاغنية والمزمار والدف يصلان الينا فى وضوح ، ولكننا لا نرى أحدا من الاهالى .. كان الصوت ينبعث من مذياع كبير فى الســماء ، ينقل الصوت صافيا حزينا ٠٠

وقال لى حسين على وهو يهز رأسه مع الاغنية :

ـ اسمع يا افندى أبو ليلة بيجول ايه ٠٠

كان صوت « ابو ليلة » قويا جميلا وحزينا ، رتيبا فى انغامه ولكنه ملىء بالانفعال والشجن . وكان يروى قصة جريمة ..

انه يسال « بهية » عن الذين قتلوا « ياسين » ٠٠ قتلوه وهو فوق ظهر الجمل ٠٠ لقد وجدوا جثته وملابسه سابحة فى دمائه، حتى ان الطبيب خاف ان يقترب من جثته ٠٠

وذهبت بهية الى الحاكم واخذت معها محاميا وقالت لوكيـــل النيابة « المتهم الذى يقف أمامك مظلوم » ٠٠ ولكن وكيل النيـــابة عوج طربوشه على ناحية ٠٠ وحكم بأربع سنين ٠٠ ســـنتين فى القصر العالى ــ اللومان ــ وسنتين فى الزنزانة

وكان حسين على يردد الاغنية مـــع أبو ليلة فى بعض مقاطعها فيهمس فى حرارة « يا بهية وخبرينى ع اللى جتل ياسين »

ثم يسكت ليعود مرددا :

« واحكم يا بيه النيابة ٠٠ جدامك مظاليم »
« عوج الطربوش على ناحية ٠٠ وحكم بأربع سنين »
« اتنين فى الجصر العالى ٠٠ واتنين فى الزنازين »

ثم يسكت من جديد ٠٠ حتى يردد مع « ابو ليلة »

وابكى لك
لم تبكينى
واشكى الوجيعة لمين

وحطيني على شمالك
وحطيني على اليمين آ

انه الان يشعر بحزن قاتم ، ويأس مطبق .. ويطلب من بهية أن يرقد شمالها أو يرقد عن يمينها . ولكن ما الفائدة .. انه يتألم ..

وخيل الى أن حسين على ، تعمد أن يسمعنى هذه الاغنية . كأنه يريد أن ينقل لى رأى أهل الجبل . فى المحققين ووكلاء النيابة الذين يموجون طربوشهم على ناحية ، ويحكمون على المظاليم فى غير فهم لمشاكلهم ..

وتذكرت صديقى وكيل نيابة الاقصر ، وهو يلبس طربوشه فى عناية ، قبل أن يذهب الى عمله .. ترى هل سمع هذه الاغنية ، وأدرك مغزاها .. ولو كان سمعها ، الم يفكر لحظة ما فى أن هذا الشعر وهذا اللحن الحزين الصادق ، قد خرج من طبيعة الاحساس بالظلم .. الذى هو احد مظاهره ..

شىء مفجع حقا . ان يقع الظلم على هؤلاء الناس ، فلا يملكون مواجهته الا باغنية ..

وعجزت تماما عن نقل مشاعرى وافكارى هذه الى حسين على .. كنت أريد أن اقول شيئا ، ولكنى وجدت ان الكلام العادى سخيف مبتذل .. امام هذه اللغة الشاعرية الرفيعة التى تتردد فى أصداء الجبل ..

ولاحظ حسين على صمتى ، بل لابد انه شعر بتعاستى ، فقال لى يريد التسريه عنى :

— أبو ليلة عنده كلام كتير تانى .. يوم ما اتجوزت كان بيجول ..

وانطلق يغنى :

« وانا نايمة يا زوزو . . وانا نايمة »
« زحلق الناديل . . وانا نايمة »
« وانا وانت فى الناموسية »
« بينى وما بينك . . جارية وحبشية »
« آه يا حبيب . . واضحك شوية »
« احسن اسيبك . . وتنى قايمه »

وفاضت نفسى بشعور من المرح ، وأنا انصت لحسين على .. انهم يعرفون الضحك والدلال فى هذا المكان .. كم يدخر هؤلاء الناس فى نفوسهم من انسانية راسبة فى الاعماق .. ان قصتى معهم متكررة ، تتلخص دائما فى لقاء جاف خشن ، اخشى فيه على حياتى ثم ينتهى هذا اللقاء باكتشافى لروح شفافة شاعرة .. هكذا ما وجدته فى لقائى بالعمدة .. وهذا ما وجدته أيضا فى لقائى بحسين على ..

كنت فى الاقصر انظر الى هذا المكان عبر النيل ، فاشعر بالغموض وتنتابنى رهبة وقشعريرة . وكأنى أحس انى لو نظرت الى الشاطىء الشرقى من حيث جئت ، لانتابتنى نفس الرهبة والقشعريرة وربما الاشمئزاز أيضا من الحياة التى تعيشها هناك كائنات مجرد مساطر آدمية . تتحرك وتتكلم وتضج وتصرخ احيانا .. دون أن يكون لها احساس عميق باى شىء

كيف تنقل انسانية أهل الجبل الى حضارة أهل المدن دون أن تتلفها .. وكيف نحتفظ بتطور أهل المدن وتقدمهم دون أن تصاب اعماقهم بالفراغ ، فيتحولون الى نفوس خاوية فارغة ؟

هل يستطيع حسين على أن يجيبنى على هذا السؤال ؟!

لابد أن عنده اقتراحا ما .. فكرة جميلة ، كتلك الاغنية الجميلة التى يرددها فى سرور واطمئنان .. لابد انه قادر على أن يقدم حلا للمأساة التى وقعت .. عندما اصطدم أهل الجبل بالتجربة النموذجية ورفضوا النزوح اليها .. انه اصطدام خطير بين انسانية صادقة ساذجة حائرة وبين مدنية ناجحة سطحية قلقة ..

واعترضتنى ابتسامة عريضة على وجه حسين على . ابتسامة متفائلة .. ثم عاد الى وجهه كبرياؤه وترفعه .. وشمخ بانفه فى الهواء .. وبدأ يروى قصته

***

يا حسين يا حسين .. يا حسين ! ..

هذا النداء ، هو أول شىء يذكره حسين على عن حياته فى الجبل ..

صوت أبيه ، وهو يردد كلمة « حسين » فى نداءين سريعين

كطلقتين متتابعتين من بندقية ، يعقبها نداء طويل ممطوط ، ينساب فى الفضاء وينفذ الى داخل الكهوف ، ويردد الجبل اصداءه ..

يا حســ ... ين .

كان الصوت يصل الى حسين ، اينما كان ..

يصل اليه وهو يلعب وسط الحصى والصخور مع اخته مريم ويصل اليه وهو يتبع احد السياح محاولا ان يبيعه تمثالا صنعه أبوه .. وعلمه كيف يقنع الخواجات بانه تمثال فرعونى .. ويصل اليه وهو ينفض الغبار عن حذاء سائحة لقاء ترش تمنحه له .. ويصل اليه وهو يسير مع شقيقته بصحبة بعض النسوة فى طريقهن الى النهر ، لاحضار الماء .. أو وهو يجلس مع بعض الصبيان ساعة الغروب ، يتسامرون ويروون القصص ، ويقضون حاجاتهم فى نفس الوقت ..

كانت علاقة حسين بابيه ، علاقة سونية . علاقة نداء متصل من الاب ، وتلبية للنداء من الابن ..

كان حسين يهرع فزعا الى ابيه كلما ناداه ، لانه يعرف انه لايستطيع الحركة .. انه مبتور الساقين ..

وغالبا ما كان الاب ينادى على ابنه حسين ، ليرسله الى « الخواجاية »

وكان حسين يفرح بهذه المهمة ، ويتنافس مع شقيقته مريم فى القيام بها ، فيقفز فوق الصخور ، ويعدو فوق الرمال ، وربما تبعته مريم وهى تجرى لاهثة ، ويمرق من باب فى سور حديقة صغيرة ، ويدق على باب بيت من طين ، فتفتح له الخواجاية الباب ، وتمسح بيدها على شعره ، وتعطيه قطعتى حلوى ، واحدة له والثانية لمريم اذا جاءت معه ..

وينقل حسين الى الخواجاية رسالة ابيه .. وهى رسالة واحدة لا تتغير « ابويا بيجولك عدى عليه بعد العشا » ..

ومع ظلام الليل ، تلبى الخواجاية دعوة الاب ، وتجلس الى جانبه ، يتحدثان عن الكنز ..

ولم يفهم حسين على معنى كلمة « كنز » حتى كبر ، ولكنه كان يدرك على نحو غامض منذ البداية ان صلة أبيه بالخواجاية وان حديثه معها

الكنز هو مصدر اهميته بين اهل الجبل .

يبدو ان أباه يعرف اسرارا كثيرة عن الجبل .. اسرارا يهمس بها جاية ، وللعمدة احيانا ، ولولا هذه الاسرار لما كانت للاب اية همية ، ولا صبح عبئا ثقيلا على أهله ..

اذا مرض ابو حسين ، قلق الجميع لمرضه ، وتترك « الخوجاية » كل ء ، وتلازمه فى كهفه لتعالجه ، ومرتين نقلته الى دارها ، وارقدته سريرها ، ونامت هى على الارض الى جواره ، حتى زالت الحمى عنه ..

وكانت الهمسات بين ابو حسين والخوجاية او العمدة ، تنتهى باجتماع الرجال فى احد الكهوف ليلا ، ليبداوا «كحت الجبل» ويستمر « الكحت » شهورا ، وفى احدى المرات استمر « الكحت » سنتين .. ليكتشفوا فى النهاية ان الكنوز ، استولى عليها اجدادهم ، وتصرفوا فيها

مرة واحدة ـ منذ خمس سنوات ـ وقعت المعجزة واكتشفوا مقبرة غير مسروقة لاحد الاشراف الفراعنة ، وجدوا فيها بعض التماثيل المرمرية .. اخذتها « الخوجاية » ..

والعمدة هو الذى حدد الثمن . قالت له الخوجاية « اللى تطلبه يا عمدة » وفكر العمدة طويلا ، ثم رفع راسه ، وقال لها فى انفعال وحماس « الف جنيه » .. قالها وكانه يطلب منها القمر ، ولم تقل الخوجاية شيئا ، مدت يدها الى صدرها ، واخرجت منه القمر ... اخرجت من بين ثدييها الالف جنيه

ووزع العمدة النقود على الجميع .. فاشتروا ملابس جديدة اشتروا حميرا وابقارا .. كل الحمير والبهائم الموجودة الان فى الجبل، جاءت بعد اكتشاف تلك المقبرة ..

وتزوج العمدة مريم .. ووجد حسين نفسه ، أهم شبان الجبل اكثرهم نفوذا ، بعد ان تزوج العمدة اخته ..

اما ابو حسين ، فكان غير راض عن هذا الاكتشاف .. ما قيمة بضعة تماثيل من المرمر .. انه يريد مقبرة فيها ذهب وجواهر من الماس .. انه يحلم بالغنى الواسع .. والمال الذى لا يحصى ولا يعد ..

وعاد ابو حسين الى همسه مع « الخوجاية » .. الهمس أصبح فى

دمه يدمن عليه وكانه يعيش من أجله ..

وانتاب حسين على خوف شديد من همس أبيه .. كل همسه الجديد عن المقبرة القديمة التى حاول الوصول اليها يوما ما ، منذ زمن بعيد لا يذكره حسين ، ولكنه يعرف انها كانت السبب فى بترساقى ابيه ..

ما زال الاب ، بعد كل السنين التى مضت ، وبعد فقد ساقيه يفكر فى تلك المقبرة ..

السرداب الطويل الذى « كحته » يبــدأ من داخل الكهف الذى يسكن فيه ، وقد غطاه بالحجارة ، ومنع اى واحد من الاقتراب منه ، ولكنه يمضى الساعات الطوال داخل الكهف وعيناه لا تتحولان عن مدخل السرداب .. هناك فى الداخل ، وعلى بعد عشرين مترا « كحتها » ابو حسين بمعوله ويديه واظافره .. هناك انهارت فوقه الصخور التى هشمت ساقيه ، ومنعته من مواصلة التقدم ، ومع ذلك فهو لن يستريح حتى يتقدم ، ويواصل الكحت ..

ولم يحدث الاب ابنه عن رغبته أبدا ، بل تحاشى دائما ذكر اى شيء .. فظل السرداب شيئا غامضا بالنسبة لحسين يذكره كما يذكر امه التى ماتت ، دون ان يعرفها .. السرداب وامه والمجهول والحزن اشياء مختلطة دائما فى صدر حسين ، اشياء لا يستطيع ان يعرفها ، ولا يستطيع ان يتكلم عنها مع احد ، او يتخيلها بينه وبين نفسه صورة واضحة مفهومة ..

ولكن هاهو الاب فجاة ، يعود الى السرداب ويهمس بالحديث عنه مع « الخوجاية » وحسين ينصت فى صمت الى همس ابيه ، فيستولى عليه قلق وخوف ، دون ان يجرؤ على قول شيء لابيه .. ماذا يقول له .. لا شيء يستطيع ان يقوله ، احاسيسه غامضة لا يقــوى على تحويلها الى كلام ..

وتكلم الاب لاول مرة عن السرداب مع ابنه حسين ..

روى له كيف بدأ الكحت فى هذا السرداب ، وعمره عشرون عاما .

وكان حسين فى الثانية من عمره ، ومريم ما زالت طفلة رضيعة ...

كان يقوم بالعمل وحده ، لانه أراد أن يحصل على الكنز وحده .. كان يريد كل ما فى المقبرة من ذهب وجواهر ليضعها تحت اقدام « جازية » ام حسين ..

كان يريد ان يغطيها بالحرير والذهب ، يريد ان يضعها فى قصر كبير يقيمه لها على شاطىء النيل ، يريد ان ياتى لها بالخدم والحشم ، ويرسل اولادها الى المدارس .. لم يتصور ابدا انه يحلم ، كان مايريده حقيقة ليس بينه وبين الوصول اليها الا جبل .. وقرر أن يفتت هذا الجبل ، ومضى فى محاولته شهرا بعد شهر ولم يوقفه عن عزمه سوى انهيار الصخور فوقه ..

وجرت « جازية » ام حسين صارخة مولولة الى الخــوجاية الفرنسية التى جاءت حديثا الى الجبل واستقرت فيه مع زوجها عالم الاثار ..

كانت الخوجاية قد تعرفت بنساء الجبل ، تعالج عيون اطفالهن بالقطرة ، وتقدم لهن كل ما يطلبن من مساعدات ..

وجاءت الخوجاية مسرعة ومعها زوجها واشتركا مع رجال الجبل فى نقل أبو حسين من تحت الصــخور التى وقعت فوقه ونقلوه الى مستشفى بالشاطىء الشرقى فى الاقصر ..

وعندما حقق البوليس فى الحادث ، لم تقل «الخوجاية» شــيئا عن السرداب الذى راته ، وكذلك فعل زوجها .. واعترف لهمــا اهل الجبل ، بجميلهما الكبير ، واطمانوا اليهما ، بعد أن انقذ ابو حسين من السجن ..

ولما عاد ابو حسين الى كهفه بعد بتر ساقيه ، جاءته الخوجاية تزوره ، وحدثته عن الآثار والكنوز المدفونة داخل الجبل ، وقال لهاابوحسين انه يعرف اماكن قبور كثيرة ، وقالت هى له ، انها على استعداد لشراء كل ما يحصل عليه أهل الجبل من آثار وكنوز ، وستمنحهم الثمن الذى يطلبونه ، وسيقدم زوجها لهم ، كل ما يطلبون من مساعدة ..

ورضى العمدة بهذا الاتفاق ، ولكنه سخر من مساعدة علماءالاثار .. هؤلاء العلماء لا يعرفون شيئا عن المقابر الحقيقية ، انهم يفتحون الكتب ويقراونها ، ثم يحددون مواقع لايمكن أن يجدوا فيها مقابر .. اهــل الجبل يحسون بغريزتهم دون أن يفتحــوا كتابا أو يقــرأوا صفحة واحدة ..

واعتزم ابو حسين اول الامر مواصلة الكحت فى سردابه الذى فقد فيه ساقيه بمساعدة أهل الجبل ، والخوجاية وزوجها عالم الآثار ..

ولكن لم تمض شهور ، حتى ماتت زوجة ابو حسين بالحمى فحزن عليها كما لم يحزن على ساقيه ، وطرد الجميع من سردابه ، واغلقه دونهم بالحجارة وقبع فى كهفه يحرسه ، وهو يجتر فى قلبه الاحزان

أصبح « كحت » سرداب أبو حسين ، بمثابة « كحت » فى نفسه ، نهش فى لحمه وعظمه ، تفتيت فى امله وحلمه ، اقتحام وتطفل على حزنه الخاص الدفين لزوجته التى ماتت ..

ويئست الخوجاية ، ويئس اهل الجبل من اقناع ابو حسين بالاستمرار فى كحت ذلك السرداب ، وانصرفوا الى مواقع اخرى أشار عليهم بها ابو حسين ..

ومضت السنون ، وفى خلالها سافرت « الخوجاية » مع زوجها عالم الاثار الى فرنسا ، ثم عادت وحدها ، وقالت لهم انها لم تتحمل الحياة فى بلدها ؛ فقطعت صلتها بكل ماضيها .. حتى زوجها ، وعادت اليهم لتعيش فى حماهم ، ولتستأنف معهم البحث عن الكنوز ..

واكتشفوا عدة مقابر مسروقة .. ثم كانت تلك المقبرة التى وجدوا فيها التماثيل المرمرية ؛ وفى اعقاب اكتشافها انتفض قلب ابو حسين بحلمه اليائس القديم ..

اعترف الاب ، لابنه حسين على ، بانه صبر طويلا على احزانه حتى تزوجت ابنته مريم من العمدة ، وكبر حسين وأصبح رجلا .. انه يرى ابنه يتحرك ويمشى بساقيه ، فيظن ان ساقيه المبتورتين قد عادتا اليه ، وعاد اليه شبابه ؛ واستيقظ الامل اليائس فى قلبه

سيفوز حسين على بالكنز المخبوء داخل السرداب ، ولن يكون هناك احتمال لتكرر مأساة انهيار الصخور .. لن «يكحت» حسين وحده ، سيشترك معه اهل الجبل وسيساعدونه ، لقاء مساعدة ابو حسين لهم بإرشادهم الى تلك المقبرة التى فتحوها ، وحصلوا على الف جنيه ثمنا لتماثيلها المرمرية ..

ولم يستطع حسين على معارضة ابيه ، رأى فى عينيه بريقا غريبا ، كأنه انعكاس الذهب والماس اللذين يراهما فى خياله ويتوقع الحصول عليهما ..

ورضخ حسين لمشيئة والده حتى لا يطفىء رفضه هذا البريق الذى لمع فى عينيه ..

ويبدأ « الكحت » فعلا فى السرداب المهجور ..

ولكن ظهرت خلال «الكحت» اعراض غريبة على ابو حسين حتى خيل لاهل الجبل ، ان الرجل بدأ يفقد عقله . كان صوته يرتفع فوق صوت المعاول وهى تفتت الصخر صارخا :

ـ يا حسين .. ابوك عاجز يا حسين ما تفوتش ابوك وحده يا حسين ..

ويجيبه حسين فى دهشة :

ـ افوتك كيف يا بوى ..

فيصرخ الاب فى الم حاد ، ويزحف على يديه .. ويحملق فى الرجال بعينين ملتهبتين ، ويشتمهم فى حرقة :

ـ كلكم غدارين .. ح تخطفوا الدهب وتسيبونى وحدى هنا ..

فيرد عليه واحد من الرجال :

ـ ما تجلش كده يا ابو حسين .. دا احنا كلتنا ايد واحدة .. نفوتك كيف .. يا راجل عيب الكلام ده ..

ويضرب ابو حسين بكفيه فوق راسه ويلطم خديه مولولا :

ـ انا عاجز .. مين ح يحملنى .. انا حملى تجيل . اوعوا تفوتونى يا رجاله .. اوعوا تفوتونى ..

واصبح «كحت» السرداب ، مهمة شاقة على الرجال .. ان تفتيت الصخر اسهل من تهدئة ابو حسين .. ومحاولة منعه من اعتراض الرجال اثناء عملهم ..

وفكر حسين فى احدى الليالى ، ان يخرج هو وبقية الرجال من داخل السرداب وصاح فى وجه ابيه ، انهم لن يستمروا فى الكحت ..

ولكن الرجل زحف وراءهم ، والدموع تنهمر من عينيه ، يتوسل اليهم الا يكفوا عن الكحت ، وكان يقترب من الرجال ، ويكاد يقبل اقدامهم ، واحتضن ساقى ابنه ، وبكى متشنجا ، يرجوه الا يهجر مع الرجال السرداب ، وزحف الى خارج الكهف واقسم الا يعود الى داخل السرداب ، حتى ينتهوا من عملهم ..

وجاءت مريم وجلست مع ابيها وقضت طوال الليل تحدثه وتسرى عنه ، وهو يمسك بيديها ويقول لها فى ذلة بين وقت وآخر :

— مريم .. نصيبك يامريم .. فتحى عينيك .. ابوكى عاجـــز ما يجدرش يحوش عنك ..
فتجيبه مريم فى حده :
— هو ده وجته يابوى ..
ويعود الاب يتوسل اليها :
— اوعوا تفوتونى يا مريم .. تخدوا الكنز .. وتفوتونى أموت وحدى هنـا ..
وتصيح مريم :
— اسكت .. اسكت يابوى ...

حتى ظهرت تباشير الصباح . وخرج الرجال مكدودين متربين من داخل الكهف .. وذهبوا الى كهوفهم ليناموا ، ونامت مريم فى كهف ابيها ذلك النهار ..

وفتحت عينيها ، فوجدت الكهف خاليا والضوء فى الخارج ينبىء عن الظهيرة ، وبحثت عن ابيها فافتقدته ، وجرت الى خارج الكهف فلم تجده حيث اعتاد الجلوس ، وعادت الى داخل الكهف فرات الحجارة التى تسد مدخل السرداب فى النهار مرفوعة ، وانصتت فسمعت صوت طرقات تأتى من الداخل . وشعرت مريم بانقباض فى صدرها .. ودخلت السرداب المظلم تبحث عن ابيها ..

ولم تصل مريم الى ابيها داخل السرداب بسهولة .. كان يضيق بها احيانا ، فتجثو على ركبتيهـا وتزحف بهما بضعة امتار الى الداخل ، ثم تصل الى جزء فسيح كأنه قبو ، فتقف تتحســس فى الظلام طريقها حتى تصطدم راسها بالصخر فتصرخ مولولة :
— يا بوى .. انا جايالك يا بوى ..

وتزحف على ركبتيها من جديد ، وهى لا تدرى ما اذا كان الذى يسيل من جبينها عرق ام دم من جرح فى راسها ..

ولم تسمع اجابة من ابيها .. كان الصوت الوحيد الذى يصلها ، صوت طرقات عنيفة سريعة فى الصخر ، تعلو شيئا فشيئا كلما تقدمت الى الداخل ..

ووصلت مريم الى جزء من السرداب يجب ان تزحف فيــه على بطنها ، وكانت تحس بصوت جلبابها وهو يتمزق ، ولحم فخذيهـــا

وهو يحتك بالتراب وقطع الحصى الصغيرة ، وملأ الغبار عينيهـا وفمها وانفها ، فسعلت بشدة وهى تحس بالاختناق ، وبالتراب يدخل صدرها ، فيجعله ثقيلا يكاد يعجز عن التنفس ..

وتمددت مريم بطولها ، وهى عاجزة عن الحركة .. والرعب يملأ قلبها .. لو انها أتت بمصباح .. او انها اخبرت شقيقها حسين .. لو انها قالت لزوجها العمدة .. واستسلمت مريم لرقدتها يائـــسة ، والدموع تنهمر من عينيها ، لولا صوت الطرقات من الداخل يدعوها الى ان تتقدم للحاق بابيها ..

وجمعت مريم كل قوتها ، وجذبت انفاســا من التراب والهواء الراكد ، ومضت تزحف وليس فى راسها سوى طنين الطرقات ، نسيت ما الذى جاء بها الى السرداب ، وما الذى يدفعها الى التقدم .. نسيت جراحها ، وتمزق ثوبها ووخز الحصى فى لحمها .. نسيت ان لها جسما ويدين وساقين .. كان الذى يزحف ويتقـــدم شىء فى داخلها .. شىء مجنون لا تدرى ما هو ..

وارتطمت مريم فجاة بجسد ادمى ، وكانت الطرقات مدوية كان المعول يدق فى راسها ، وصرخته مريم :
— يا بوى ..

واذا بيد قوية تدفعها ، وبمعول حاد يهوى على فخذها فيقطعه ، وصوت ابيها يهتف فى جنون وعداوة :
— انت مين .. مين اللى جاى يخطف الكنز منى .. ابعـدوا يا اشرار .. ح اجتلكم واحد واحد .. ح أموتكم ..

واطلقت مريم صرخات عالية .. اعقبتها صرخات ضعيفة .. ثم لم يخرج منها صوت .. لكن معول ابيها قد مزقها اربا ، وكسر عظامها الهشة حتى اصبحت نثرا من اللحم وفتـــاتا من العظم وبركة من دماء ..

لم يدرك الاب ماذا حدث .. كل ما حسبه أن عدوا جاء ليأخذ منه الكنز فقتله ، ولما عاد السكون من حوله ، التفت الى الصخر واستمر يضرب فيه من جديد ، وقد صمم ألا يكف عن الكحت حتى يصل الى الكنز ، ويستولى عليه بنفسه ..

ولم ينتبه الرجال الى اختفاء أبو حسين ومريم حتى غروب الشمس.

وكان العمدة فى ساعات النهار راقدا كعادته استعدادا لسهر الليل ، وقد تساءل مرتين او ثلاث ، بينه وبين نفسه عن غياب مريم ، ولكنه علل اختفاءها بان تكون ما زالت عند ابيها ، او ربما ذهبت لتحضر له بعض الماء من النهر ، الذى يقع على مسافة طويلة .. تحتاج لمشى كثير، وتخيل مريم وهى جالسة على شاطىء النهر تغسل ثياب ابيها ، ثم قال لنفسه ، انها بنت طيبة ولكنها عبيطة ، فابوها مقعد يزحف بيــديه وسط التراب ، ولا فائدة من غسل ملابسه وتنظيفها ، لانها تتسخ بعد ان يلبسها ابو حسين فى الحال ..

ولكن فى ساعة الغروب بدأ القلق يداخل العمدة ، وازداد قلقه ، عندما قابل بعض النسوة القادمات من النهر ، وعلم منهن ان مريم لم تذهب معهن ..

وعندما راى العمدة حسين على قادما يعدو نحوه ، اجفلت عينـــاه وشعر بخفقة حادة فى قلبه ..

ولم يصبر العمدة حتى يصله حسين على .. صاح فيه :

ــ مريم فين ياحسين ..

ورأى العمدة ملامح الانزعاج على وجه حسين ، وسمعه يساله فى حدة وانفعال :

ــ هى موش عندك يا عمدة ..

وزفر العمدة صيحة الم وهو يقول :

ــ مريم راحت فين ياحسين ..

ووقف حسين واجما ، واطرق براسه ، حتى امسك العمدة بكتفيه وهزهما فى شدة ، وبصعوبة نطق حسين قائلا :

ــ يا عمدة .. هات الرجالة وتعالوا معايا ع الكحت ..

ولم يقل العمدة شيئا لحسين .. كانه فهم من كلماته كل شىء .. لم يدرك شيئا محددا ، ولكن القلق الملح الحاد كان أفصح من كل شىء .. كان القلق يصرخ فى داخله .. ان كارثة قد وقعت ..

ولم يتردد الرجال لحظة فى اتباع أوامر العمدة .. تركوا مجلسهم فى تلك الحلقة التى يتسامرون فيها ، وهم يقضون حاجتهم ، وبادروا بتلبية نداء العمدة صامتين .. انهم يعلمون دائما أن الجبل غدار ، وأن الكحت ليس هينا ، وراءه الموت ، ويكفى ان يسمعوا نداء ، حتى

يتجمعوا بلا مناقشة أو تردد ويسرعوا الى مصدر النداء ..

وجاءوا بمصباح ، ودخل ثلاثة رجال يتقدمهم حســين على الى السرداب .. تقدموا صامتين ، مسرعين ، فى سرداب صامت كالقبر .. حتى توقف حسين على فجاة ..

وتقدم الرجلان من خلفه ، فصرخوا . وحسين على لا يصرخ ويده متصلبة على المصباح ، وعيناه لا تتحولان عن جثة مريم لا يكاد يتبين ملامحها ، والى جانبها جثة ابيه ، وقد هشمت راسه صخرة كبيرة دقتها ..

***

قضى العمدة تلك الليلة لا ينبس بكلمة وقضى بعدها نهارين وليلتين لا ينبس بكلمة .. جلس مطرقا ، لا يتحرك ولا يشرب ولا ياكل ولا يتكلم .. وكانه لا يتنفس ..

وأول كلمة قالها العمدة ، فى فجر اليوم الثالث ، زفر فى ضعف ، وخرج منه صوت غريب يكاد لا يسمع :

ــ مريم .. استراحت ..

وفقد العمدة سيطرته على أهل الجبل ، كان يجلس بينهم كالابله ، او الطفل الصغير وهو يبكى ، ومن حوله النسوة يندبن ، وهو لا يقوى الا على ترديد جملة واحدة : « مريم استراحت » .. حتى جاء نهار ، ثار فيه العمدة على غير انتظار وصاح فى النسوة من حــوله :

ــ ماكنش جصدى حاجة لنفسى .. جصدنا انهد .. عيالى جطرهم الموت ، وأنا وحدى مالياش حد .. كان ظنى مريم تعطينى عيال ، كان جصدى اسمى ما يتجطعش .. اسمى يبجى على ضهر الدنيا .. مابجاش جصادى الا الموت ..

أما حسين على ، فقد هام على وجهه فى الجبل ، وتبعته الخوجاية باحثة عنه ، فلما وجدته وأرادت مواساته ، هجم عليها يكاد يفتك بها، وجعلها تفر مذعورة منه

وكان حسين يجلس على حافة هضبة ، يطل منها على المهندس وبعض الرجال وهم يشيدون أول مبنى فى القرية النموذجية .. كانوا رجالا قليلين لا يزيدون عن سبعة أو ثمانية ، جاءوا من الجبل ليعملوا فى البناء لقاء ثمانية قروش يقبضونها اخر اليوم ..

ولمح أحد هؤلاء حسين على وهو يقضى اليوم كله ينظر اليهم من مكانه المرتفع ، فذهب اليه ، وطلب منه أن يشترك معهم فى البنـاء ، فاستسلم له حسين بلا معارضة وفى ذلك اليـــوم اكتشف انه لم يأكل لعدة أيام ، وأنه يتضور جوعا ، فأكل كل ما استطاع أن يحصل عليه من طعـــام ، ونام الى جانب البنايات ، ورفض العودة الى الجبل ..

ومضت شهور وحسين على يبنى فى القرية النموذجية ، والرجـال يتزايدون قادمين من الجبل وهم يروون عن العمدة أقاصيص غريبة .. انه ينصحهم بالفرار من الجبل .. واذا رأى واحدا منهم زعق فيه ، وامره أن يختفى عن ناظريه ، ولم يعد يطيق رؤية أحد ، ولا حـديث له الا عن الموت الذى يترقبه ، والوحـــدة التى يريد أن يعيش فيهـا ..

حتى الخوجاية ، جاءت للعمدة ، فطردها ، وهددها بترك الجبل ، لولا انها بكت وارتمت على قدميه ، متوسلة اليه أن يسمح لهابالبقاء ، والا يمسها بسوء ، فرضى ببقائها بشرط الا تظهر أمامه ..

وكان حسين على يسمع هذه القصص ، وكأنه لا يعنيه منها شيء ، ويسمع الرجال وهم يتهامسون فى قلق على مصيرهم الذى ينتظرهم عندما يفرغون من بناء القرية ، وتضطرهم الحكومة الى النزول فيها ، فلا يهتم لقلقهم ، ولا يفهم سبب انزعاجهم وخوفهم من المصير الذى يترقبهم

قال أحد الرجال لحسين على ، يوم فرغوا من بناء دار العمدة وقبضوا يوميتهم :

ـ اليومية دى ح يعطوها لنا بعدما تخلص البنايات ؟

فهز حسين رأسه قائلا :

ـ لا ..

وعاد الرجل يسأله :

ـ وح نعيش كيف ياحسين ؟

وسكت حسين ولم يجب ..

وثار الرجل مغيظا فى وجه حسين على :

ـ وزجنا فوج يا حسين .. مع الاثارات والسواح .. لو انتجلنـا

م الجبل ح نموت كلتنا ..

وأجابه حسين فى هدوء قاتل :

ـ نموت .. نموت .. احنا عايشين ليه ..

***

ولكن حسين على أفاق من هدوئه القاتل فى أحد الايام .. ذهب ليقبض يوميته .. الثمانية قروش .. وما كاد يحصى القروش ويضعها فى جيبه ، حتى جاءه نفس الرجل الذى دعاه للعمـــل فى البنايات وطلب منه قرشين من الثمانية قروش ..

وظن حسين على أنه يريد اقتراض القرشين منه ، ولكن الرجـــل قال لحسين فى وضوح لا يقبل التأويل ، ان بقاءه فى العمل مرتبط بالقرشين اللذين يجب أن يدفعهما يوميا له ..

كان الرجل يتكلم فى حزم ، ويعلن أنه أصبح المسئول عن توريد الرجال للعمل ، وان كل من فى الجبل يريدون الاشتراك فىالبنايات، وأنه هو الذى سيختار من يعمل ، ولابد من دفع ثمن لهذا الاختيار .. انه لم يعد عاملا مثلهم .. انه المقاول ..

ورفض حسين أن يدفع القرشين ، وترك العمل ، وذهب فى تلك الليلة الى الجبل لاول مرة ، ومضى الى لقاء العمدة

وقابله العمدة بالعناق والدموع ، وكان يضمه الى صدره بقـوة ثم يمسك بكتفيه ويدفعه الى الوراء ، ويطيل النظر اليه من خلال دموعه، ثم يضمه ثانية اليه قائلا له فى تأنيب وأسى :

ـ تفوتنى كيف ياولدى ..

وصمم العمدة على أن يسكن حسين معــه ، ولم يدعه يغيب عن ناظريه لحظة واحدة طوال الليل والنهار .. ولم يعد ينـــاديه « يا حسين » .. كما اعتاد من قبل ، أصبح يناديه « يا ولدى » ..

وكانت لعودة حسين على الى الجبل ، اثرها بين الرجال ، فقـــد تناقلوا فيما بينهم قصة رفضه للعمل فى القرية النموذجية وامتناعه عن دفع الاتاوة اليومية للمقاول وتضخمت القصة وهى تنتقل من رجل الى رجل ، حتى راجت اشاعة فى الجبل تقول ان حسين هدد المقاول بالقتل ، لانه خان أهله وعشيرته وباع نفسه لمهنـــدس القرية ، وأصبح يسرق رزق العمال اليومى بتلك الاتاوة التى فرضهـــا عليهم ..

وتحول حسين الى بطل يرمقونه باعجاب ويلتفون من حوله ينتظرون منه كلمة يقولها فى مشكلتهم التى تزداد حدة ، كلما مضت الايام ، وارتفعت مبان جديدة فى القرية النموذجية ، تنبىء عن اقتراب موعد هبوط أهل الجبل الى تلك المبانى ..

واحتار حسين ، ولكن احدا منهم لم يدرك حيرة حسين ، كانوا جميعا يظنونه قد بيت أمرا بينه وبين نفسه وأنه سيعلنهم بهذا الامر فى وقت قريب .. فى الوقت المناسب ..

حتى المقاول ظن أن حسين يبيت أمرا ، وبلغته الاشاعات التى تقول أن حسين سيقتله ، فصدقها ، وخاف على حياته وخشى أن ينفض الرجال من حوله فقرر أن يبدأ بالهجوم ، وذهب الى العمـــــدة يهدده ..

كان العمدة مع حسين ، عندما اقبل المقاول عليهما ، وتجمع الرجال ليشهدوا ماذا يدور فى هذه المقابلة ..

قال المقاول للعمدة فى تحد ظاهر :

ـ شوف يا عمدة ، انا جاى فى كلمتين مختصرين .. الامر أمر الحكومة ، ولازم تنزلوا تحت ، وتخلوا الجبل .. المهندس غرضـــه اليوم ، كل الرجالة تشتغل .. البنايات دى كانت رزج وأنا مشيت فيه اسمع كلامى يا عمدة ، والله لولاى كان زمانكم محطوطين فى الحديد ، انا حايش عنكم شر كبير ..

واطرق العمدة قبل أن يجيب ، ولكن حسين لم ينتظـــر ، ن مالنجا فى وجه المقاول قائلا له :

ـ بجيت علينا راجل .. بتتريس فينا عملت مجـــاول و جروشات الرجالة ، وآخرتها جاى تخلى الجبل ، عدى يا راجل جدامنا ، مالكش عندنا كلام ، اياك تطلع الجبل تانى ، وانا أجطعد رجليك ..

فنظر المقاول ساخرا الى حسين وقال له :

ـ أبوك يا حسين هو اللى اتجطعت رجليه ..

ولم يكمل المقاول .. هجم عليه حسين يريد ان يفتك به لولا تدخل الرجال ليفرقوا بينهما ..

وفشل المقاول فى الوصول الى غرضه لم ينجح تهديده ، بينما ايقن

الرجال أنهم على حق فى ظنهم أن حسين يبيت أمرا ..

وأعاد الحادث للعمدة حماســـه القديم فطرد المقـــاول وهو يصيح فيـه :

ـ امشى يا راجل ياعديم الذمة .. والله لو شفتك هنا تانى لافوت عليك الرجالة تاكلك ..

وبعد انصراف المقاول ، سمع حسين لاول مرة بعد موت أبيـــه وأخته .. كلمة « الكحت » .. تتردد على مسمعه من جديد .

صاح احد الرجال :

ـ يا رجاله .. احنا هملنا الكحت .. ومالناش غيره ..

وأيد الجميع صيحة الرجل .. ما عدا العمدة ، وجم كأنه سمع نبا مفزعا ، وما عدا حسين الذى انطلق مبتعدا عن الجماعة دون أن يقول كلمة واحدة ..

كانت كلمة « الكحت » تزلزل كيان حسين ، وتثير القشعريرة فى نفسه ، ومع ذلك فهى تلاحقه كالمصير المحتوم ..

ماذا أمام أهل الجبل غير الكحت ، انهم ما كادوا يبتعدون عن الجبل حتى اتجهوا الى مقاول يسرق منهم النقود ..

وهناك القرية الجديدة ، تنتظرهم بقبابها وكأنها قبور جـــديدة سيدفنون فيها احياء .. لا عمل لهم فيها ، ولا ارض يزرعونها ، ولا مصدر رزق يحسبون منه قوتهم ..

لابد أن يبقوا فى الجبل .. والبقـــــاء فى الجبل معناه استمرار الكحت ..

الكحت هو الخيال الوحيد .. الامل الوحيد .. لكل من يسكن الجبل ..

وأسرع حسين فى مســـيره ، وكأنه يجرى من « الكحت » الذى يطارده ، حتى كاد يصطدم « بالخوجاية » دون أن يراها ..

وقبل أن يفتح حسين فمه بالتحية للخوجاية ، كانت قد امسكت بيده ، وجذبته معها فى صمت ، ومضت به الى بيتها ذى الحـــديقة الصغيرة ..

واجلسته الخوجاية على مقعد وثير ، وقدمت له كوبا من الشاى ..

وما كاد حسين يمسك بكوب الشاى ، حتى انحنت عليه الخوجاية ،

وقبلته فى فمه قبلة طويلة ساخنة ..
اطبقت بشفتيها النهمتين ، على شفتيه وطوقت عنقه بذراعيها . وجلست على حجره ، وهو لا يدرى كيف يتصرف والافكار تتتابع فى راسه طوال القبلة التى لا تنتهى ..

كان حسين يقول لنفسه .. انها صديقة ابى .. لقد كنت احمل اليها رسائله وانا صبى صغير .. ان عمرها يساوى عمرى مرتين .. آه لو عرف العمدة بهذا .. هل اتخلص منها .. ان جسمها بض .. وهى شقراء .. وتقبلنى بحرارة ورغبة .. انها تريدنى ستكون عبدة لى .. هل اتزوجها .. شعرها املس .. ثدياها يملان كفى . خصرها يتلوى بين اصابعى .. سافوز بها .. انها لى ..

وفاز بها ..

ورقدت الى جواره فى سرير لم ينم على مثله فى حياته ، وهو يتحسس اغطية السرير بنفس الفضول واللهفة اللذين يتحسس بهما جسدها ..

وشعر حسين براحة من نوع غريب ، سرى فى جسده خدر وكسل لم يتعرف عليهما من قبل .. واستسلم لنظرات « الخوجاية » وعيناها تنتقلان وكانهما تتحسسان جسده العارى .. عيناها ليست فيهما قطرة من خجل ولا حياء ..

ومدت « الخوجاية » ذراعيها تحت عنق حسين ، وداعبت اذنه البعيدة باناملها وهمست :

ــ موش ح تغيب عنا تانى يا حسين

وخرج من حسين صوت متحشرج اجش :

ــ لا ..

والصقت فمها باذنه القريبة ، وقبلته وهى تردد مع كل قبلة ..

ــ باحبك .. باحبك .. باحبك .. يا حسين ..

والتفت حسين بوجهه اليها ، فاصبحت شفتاها بين شفتيه .. وقبلته قائلة :

ــ انت سيدى ..

وارتاح حسين لكلمة « سيدى » وفسرت له هذه الكلمة ، ما حدث بينه وبينها .. فهى ليست زوجته ، ولم يحبها او يشتهيها يوما من

الايام .. وما وقع بينهما كان مفاجئا ليس له تفسير ، الا ما تقوله هى .. انه سيدها ..

ونهضت من الفراش ، وغادرت الحجرة وسمع صوت الماء يتدفق عليها ، ووقع اقدامها وهى تروح وتجىء .. ثم عادت اليه وقد ارتدت ملابسها كاملة ، وقالت :

ــ انت نعست ..

فنهض بدوره ، وارتدى ملابسه وهو يسال نفسه .. ماذا سيقولون عنه فى الجبل ، لو علموا بعلاقته بالخوجاية .. لابد ان تظل هذه العلاقة فى الخفاء ، لا يعلم بها احد .. واتجه الى الباب يريد الانصراف ، ولكنها امسكت بيده .. وطلبت منه ان يجلس لتحدثه فى امر هام :

ــ ح تعمل ايه يا حسين بعد ما رجعت لاهلك ..

فاجابها فى غير اهتمام :

ــ ما اعرفش ..

وارتفع صوتها فى قوة :

ــ انت عارف ايه اللى ح تعمله ..

ونظر اليها حسين فى ثبات وقال جادا :

ــ والله ما اعرف ..

واقتربت منه ، ووضعت يدها على كتفه ، وهمست فى تصميم .. وصوتها كالفحيح ..

ــ انت ح تكمل الكحت .. يا حسين

واشتدت ضربات قلبه .. وعادت اليه القشعريرة التى احس بها عندما سمع الرجل يصيح .. يا رجاله احنا هملنا الكحت .. ومالناش غيره ..

الكحت يواجهه فى كل خطوة يخطوها منذ عاد الى الجبل ، الجميع يتحرقون الى الكحت ، لا يستطيعون التفكير فى غير الكحت ، هونفسه حائر لا يدرى ماذا يصنع ، وسبب حيرته انه لا يريد قبول الحل الوحيد الرابض امامه كانه القدر .. الكحت ..

وهز حسين راسه وقال فى صوت مخضب بالالم :

ــ الكحت وراه الموت .. والسرداب مشئوم .. وكفاية المصايب اللى جرت علينا ..

فصاحت فيه الخوجاية :

ــ انت غرضك دم ابوم واختك يروح هدر ..

ــ كفاية اللى حصل ..

ــ ابوك كان غرضه الكحت يتم ..

ــ الله يرحمه

ــ انت خايف على نفسك يا حسين ..

وضحك حسين فى الم .. ولم يجب

وسكتت الخوجاية .. وكفت عن الحاحها عليه ، وعندما هم بالانصراف ، ودعته فى برود ..

***

وتردد حسين على بيت « الخوجاية » كل ليلة ، واصبح سيدا مطلقا على جسدها وفى كل مرة كانت تهمس له بتلك الكلمة التى يحبها ويرتاح لسماعها .. انت سيدى .. ولم تحاول أن تكرر مناقشتها معه حول .. الكحت ..

ولكن لم يمض اكثر من اسبوعين منذ بدات علاقتهما ، حتى قال لها حسين وهو يغادر بيتها فى احدى الليالى ،انه قرر استئناف الكحت .

فضمته الى صدرها ، وقبلته ، ولم تدعه يترك البيت ، ونام تلك الليلة فى سريرها حتى الصباح ..

وعاد الرجال الى السرداب .. وارتفع صوت المعاول تفتت الصخرة .. ولم يعد حسين يذهب الى الخوجاية فى الليل ورضيت هى بابتعاده عنها .. كان الكحت اهم من كل شىء وهى تستطيع على كل حال أن تقابله خلسة فى بعض الايام ساعة العصر لولاحسين ، الذى صمم على أن يقضى النهار بطوله راقدا فى الكهف عند مدخل السرداب ، وقد انتابه وهم لا يستطيع الخلاص منه ، انه لو غادر الكهف لحظة ، سيعود ليجد أحد رجال الجبل او نسائه ميتا داخل السرداب ، كانه يتوقع فى شبه يقين ، تكرار ماساة ابيه واخته

وفى احدى الليالى ، وكان الليل قد تاخر ، واقترب الفجر ضرب حسين بمعوله فى الصخر ، فاذا به يسمع رنينا غريبا ..

ودوى مع رنين المعول صوت الرجال :

ــ الفاس بترن يا حسين .. لجينا الكنز .. الفاس بترن .

وانبثقت من سواعد الرجال قوى جبارة ترفع المعاول وتهبط بها، والرنين يزداد فيشحنهم بقوى اكثر واكثر ..

وتوقف حسين على عن الكحت فجاة ، والقى بمعوله ، وبدأ يمسك بسواعد الرجال الثلاثة الذين شاركوه قائلا لهم :

ــ كمان دجتين والكنز ح ينفتح بطلوا الكحت وروحوا جولوا للعمدة يا رجالة . .

وخرج رجلان من السرداب وبقى واحد مع حسين ، ووجد الرجلان العمدة قريبا من الكهف ، يجلس مع بعض الرجال يستمعون لاغانى ابو ليلة ..

كان العمدة مرحا تلك الليلة ، وقد استعاد حيويته منذ بدا الكحت وابو ليلة لا يكتفى بالغناء ، فيقوم بالعاب مضحكة يثنى جسمه القصير الى نصفين وقد نام على الارض ، ولف قدميه بعمامة ، ويدير معركة بين الراس الوهمية المركبة فى قدميه ، وراسه الحقيقية ..

كان العمدة يهتف ضاحكا وهو يشير الى العمامة :

ــ والله يا رجالة ده الشيخ طلباوى بعمته اضربه يا ابو ليلة . اضربه الله يحبيك ..

والتفت العمدة ، فاذا بالرجلين الخارجين من السرداب واقفين امامه ..

ورفع العمدة عينيه اليهما ، وفى راسه دوار لمرآهما .. كان على استعداد لان يسمع منهما اى شىء .. مصرع حسين .. انهيار الصخور .. موت اى أحد ..

ولكن الرجلين هجما عليه يقبلانه وهما يرددان :

ــ الفاس بترن يا عمدة .. لجينا الكنز





وقالت الامـــيرة لاصدقائها ضاحكة :
ـ سنشاهد الآن منظرا فــريدا .. ان العمدة يقترح ان ياكل المهندس ما رايكم ؟

الفصل السابع

كل الصلابة والحزم اللذين فى الدنيا ، اجتمعا فى وجه العمـــدة وارتسما فى ملامحه بمجرد سماعه بالنبا ..

الرجلان يقولان له فى فرح وانفعال محموم أن « الفاس بترن » .. ولكن العمدة لا يستطيع أن يفرح أو ينفعل فى هذه اللحظة .. انهـا لحظة حاسمة ، وهو يعرف جيدا أنها أخطر اللحظات ، أخطـــر من الكحت ، ومن انهيار الصخور أخطر من موت زوجته مريم وابيهـــا ابو حسين اللذين دفعا حياتهما ثمنا من أجل هذه اللحظة ..

اى تهاون أو تردد من العمدة الان ، أى فقدان لسيطرته على اعصابه وعلى الرجال من حوله .. سيؤدى الى كارثة .. لو ضــــــاعت هيبته ، وضعفت كلمته ، سيقتتل الرجال ، وستدور المعركة بينهم على الكنز . معركة رهيبة ، قد لا ينجو منها إحد .

وارتفع صـــــوت العمدة قاطعا حادا ، فتوقف ابو ليلة عن العابه وانصت الرجال فى رهبة الى العمدة وهو يقول لهم :

ـ انا رايح يا رجالة احـرس الكنز ، ح أجمد عـلى بابه ، محدش يجرب منه ، لحد ما اجيمكم كلتكم بعد صلاة العشـــا الليلة الجاية ونفتحه باذن الله ..

وصاح اكثر من واحد :

ـ نحرسه معاك يا عمدة ..

فنهرهم فى غضب وقال محتدا :

ـ انا وحسين ح نحرسه وحدينا .. دا كنز حسين .. ونصيبكم منه حتخدوه بمشيئة الله ..

وانصرف العمدة ، يتبعه الرجلان اللذان اعلناه بالنبا .. اما بقية الرجال ، فقد جمدوا مكانهم لا يجسرون على اللحاق به ولما ابتعـــد عنهم العمدة ، أفاقوا لانفسهم وانطلقوا الى الكهوف يوقظون النائمين

ويتشاورون فى الحدث العظيم ..

ووصـــــل العمدة الى السرداب ، ودخله فى الحال .. جثا على ركبتيه ، وزحف على بطنه ، ومشى على قدميه ، حتى وصـــل الى نهايته ، ورأى حسين وزميله فى انتظـــاره .. وما كاد يرى حسين ، حتى تذكر فجأة ، أن مريم زوجتـــه ماتت فى هذا المكان .. فانقبض قلبه ، واغرورقت عيناه بالدموع ، وظنها حسين دموع الفرح فاعطاه الفاس قائلا فى حماس :

ـ اضرب يا عمدة .. الفاس بترن ..

وامسك العمدة بالفاس ، وضرب به الصخر ، فاحدث رنينـا يدل على وجود فراغ خلف الصخر ..

انه فراغ المقبرة الفرعونية التى تحوى الكنز ..

والقى العمدة بالفاس ، وتنهد ، ومسح على وجهه ، ثم اقبل على حسين يعانقه فى رفق ، وهو يردد فى نغم حزين وقور :

ـ ربنا عوضك يا ولدى .. ربنا عوضك

وخرجوا من السرداب ، وهم يسندون العمدة ، كان يترنح ويتعثر فى كل خطوة وقـــد خارت قواه وهو يتحسس جوانب السرداب ..

نفس الجوانب التى تحسستها مريم قبل ان تموت ، هناك شىء فى داخله يدفع بجسمه للتمسح بالصخر والتراب الذى يحمل رائحة مريم ويحتفظ بنسمات آخر لحظات حياتها . لقد ناء بحمل الحزن والفرح اللذين اجتمعا فى هذا السرداب

وما كاد يصل الى مدخل السرداب ، حتى القى بجســـــده على الارض ، وأعلن انه سيرقد فى هذا المكان ، ولن يتزحزح عنه ، حتى موعد فتح المقبرة ..

والتفت العمدة الى حسين وطلب منه أن يذهب الى الخوجاية فى الحال ، وينقل اليها الخبر لتستعد فى الليلة القادمة لاستلام الكنز ..

***

وذهب حسين الى بيت الخوجاية مع تباشير الصباح وطرق بابها فى عنف حتى فتحت له الباب ، وما كادت تراه حتى اختفى النعـــاس من عينيها ، وسألته فى انزعاج :

ـ ايه اللى جرى يا حسين ..

فاجابها فى هدوء :

ـ لجينا الكنز ..

وبدت اللهفة فى صوتها ، واشتد انزعاجها . كانها سمعت نبـــأ فاجعا . وصاحت فيه :

ـ فتحوا المجبرة يا حسين ؟

فهز راسه محييا :

ـ لا .. ح نفتحها الليلة الجاية ..

ولم تكد تسمع اجابته ، حتى تركته واندفعت الى داخل البيت ، وعجب حسين لها ، كان يتوقع منها ان تقبله وتعانقه ولكنها انصرفت عنه كالمجنونة ، وتبعها الى حجرة نومها فوجدها تخلع قميص نومهـا فى عجلة وارتباك ، وترتدى عباءتها الصوف وتضع على راســـها العمامة الزرقاء وفى لحظات كانت على استعداد للخروج

ونظرت الى حسين وقالت له فى لهجة آمرة ..

ـ ما تعملوش حاجة لحد ماجى .. انا رايحة الشـــــط الشرقى وراجعة بعد جيمة ساعتين .. الاجيك هنا يا حسين

فسالها فى دهشة :

ـ رايحة فين ..

ولم تنتظر حتى تجيب على سؤاله جرت الى الخارج وهى تقول :

ـ رايحة اجيب الفلوس .. الاجيك هنا بعد ساعتين ..

واندفعت فى الطريق مهرولة ..

وعاد حسين الى كهفه ، فوجـــد العمدة راقدا على ظهره مغمض العينين ، فظنه نائما .. ولكنه ما كاد يجلس حتى سمع صـــوت العمدة يساله :

ـ جلت لها ؟

والتفت حسين اليه ، فوجده قد فتح عينيه يحدق بهما فى سقف الكهف .. وأجابه :

ـ أيوه ..

ـ وجالت ايه ؟

ـ راحت الشط الشرجى تجيب الفلوس ..

وسكت العمدة .. وظل يحدق فى سقف الكهف ، وقد ظهر التعب واضحا فى عينيه ..

وساله حسين ... لق :

— هى بتجيب ... رس منين يا عمدة ؟

فحول العمـ... ينيه عن السقف .. ونظر الى حسين طويلا ثم قال :

— من صحابها .

وارتفع صوت ... ين رغما عنه متسائلا فى ضيق :

— صحابها مين ؟

وشعر حسين ان نظرات عمدة تقتحمه وتكاد تخرق صـــدره ، فتكشف عن سره .. الخوجاية .. كانت نظراته عميقـة ، محدقة ، فيها تفكير وتامل و ... وف عن الرغبة فى الكلام ..

واخيرا قال العمدة :

— صحابها تجار الاثارات .. جماعة فى الشط الشرجى

ولم يستطع حسين ان يمنع نفسه من مواصلة الحديث .. فعاد يسال فى حدة :

— وهى تعرفهم منين .. بيجوا مين دول ؟

واعتدل العمدة فى رقدته وجلس متربعا ، وعبث بيده على الارض .. ثم ثبت عينيه فى عينى حسين وقال له :

— خواجات شكلها ، كان واحد منهم بييجى على بيتها كل ليـــلة وانتوا بتكحتوا

وصرخ حسين وقد فقد السيطرة على نفسه :

— ماجلتليش ليه يا عمدة ..

وضحك العمدة ساخرا فجاة .. كانه وصل بنظراته العميقة التى يوجهها لحسين ، الى اكتشاف .. استطاع ان ينفذ الى صـــــدر حسين ، ويرى ما فى داخل قلبه ..

قال العمدة فى سخرية مرة :

— يمكن جوزها .. يمكن بيتفح معاها على الكنز .. هى حـــرة فى نفسها .. دى خوجاية مش واحدة من نسوانا

ثم وجه العمدة طعنته الى حسين .. فجاة .. قال له :

— أنا غرضى تتجوز يا حسين

وشعر حسين بالخجل ، وكانه تعرى امام العمدة ، وحز فى نفسه انه لم يناديه كعادته « يا ولدى » ..

وايقن حسين .. ان العمـــدة عرف كل ما بينه وبين الخوجاية لا يدرى كيف عرف .. ولكنه عرف ..

وشكر حسين للعمدة بينه وبين نفسه ؛ انه لم يصارحه ... الطريقة اللبقة المقنعة .. اكتفى بأن ينصحه بالزواج ..

وقال حسين فى ضعف واستسلام .. كانه يدافع عن نفســه .. كانه يبحث عن الخلاص :

— وانا كمان غرضى اتجوز يا عمدة ..

واختفت السخرية من صوت العمدة ومن نظراته ، وقال له :

— انا اخترت لك مرتك يا ولدى ..

ونظر اليه حسين متسائلا .. وعيناه تعلنان التسليم والقبول ..

وقال له العمدة بصوت وقور :

— اخت الشيخ طلباوى .. بنت حلال وغلبانة .. وغرضى اريحها من اخوها ..

ومرت براس حسين صور سريعة لاخت الشيخ طلباوى

وهى تمر امام الرجال فيتحدثون عن مهارتها فى صنع اطباق القش وهى تذهب باكية الى العمدة تشكو له شقيقها الشيخ طلباوى كلما جاء من اسيوط .. واعجابه باصرارها على البقاء فى الجبـــل على الرغم من فقرها ، لانها ترفض ان تكون خادمة لزوجة شقيقها

ووجد حسين نفسه يقول للعمدة :

— وافقت يا عمدة .

وقام العمدة واتجه الى حسين ، فقام بدوره ، وتماسكت ايديهما وقال العمدة :

— اجرا الفاتحة معايا يا حسين ..

وقرا الاثنان الفاتحة ؛ وحسين لايكاد يصدق انه اقدم على هـــذا الزواج تحت تاثير العمدة وحده ، لاشك أن الله دخلا كبيرا فى كل هذا الذى تم الان :

وعادالعمدة الى مكانه من باب السرداب ورقد موليا ظهره لحسين، وكانه لم يحدث شىء ..

وظن حسين ان العمدة قد نام ، فجلس يراجع الافكار والمشاعر الكثيرة التى اختلطت فى رأسه وصدره ، بعد حديثه القصير مع العمدة ..

أحس كانما قوى مجهولة تسيطر عليه وتطارده .. الكنز والخوجاية ، والعمدة ونظراته العميقة ، وموافقته المفاجئة على الزواج ..

ان رأسه يدوى بضوضاء أضخم من تلك التى كان يسمعها والمعاول تضرب فى الصخر داخل السرداب ، انه لايدرى ماذا سيجد له ، واقرب من هذا :انه لا يدرى ماذا حدث له ..

ها هو يوشك ان يحصل على الكنز .. كنز شق طريقه اليه مضطرا .. كنز يذكره بفاجعة اخته وابيه .. ايفرح أم يحزن بهذا الكنز .. .. كل ما يشعر به الان ، هو القلق والحيرة

نفس القلق والحيرة ، اللذين لازماه قبل الكحت واثناءه ، انه لا يكاد يصدق ان ذهب الكنز ، ولا الذهب المخبوء فى جميع كنوز هذا الجبل يستطيع أن يخرجه من قلقه وحيرته ..

كان يريد المال لياكل ويعيش .. ولكن كيف ياكل ويعيش بعد ان يحصل على المال .. انه لم يفكر فى ذلك حتى الان .. كان مشغولا بالبحث عن المال ، حتى نسى كيف يتصرف عندما يحصل عليه ..

هل يترك نفسه لتلك القوى الخفية التى تحركه ، هل سيضطر الى الحياة بالمال ، كما كان مضطرا الى الحياة بالفقر هل يترك الخوجاية ترسم له الطريق .. ولكنه نبذ الخوجاية منذ لحظات منذ قرأ الفاتحة مع العمدة ، متعاهدا على الزواج باخت الشيخ طلباوى .. هل يترك اخت الشيخ طلباوى ترسم له الطريق ..

وقفزت الى مخيلة حسين ، صورة الاغطية النظيفة الوثيرة على سرير الخوجاية .. اقتحمت صورتها تفكيره فجاة ، وكاد يشعر بملمسها الرقيق الناعم على جسده .. هذه الاغطية تطارده ايضا فى خياله اينما ذهب ، وفى اى وقت .. وكان يضرب الصخر بفاسه داخل السرداب ، فيبرز امامه سرير الخوجاية واغطيته ، وجسدها العارى الى جانبه ، ويظل يضرب فى هذه الصخور البارزة امامه .. كانه يريد تفتيتها .. كانه يريد القضاء على السرير والخوجاية ونفسه ، وكانه

يسمع صوت طرقات الفاس تردد فى آذانه كلمات الخوجاية : انت سيدى . انت سيدى .. وهكذا تمضى الساعات الطوال يعمل فى السرداب ويعجب كيف لا يرى زملاؤه الرجال ، نفس الصورة التى يراها مرتسمة على الصخر ، وكيف لم يسمعوا نفس الكلمات التى تتردد مع طرقات الفاس ..

حتى علاقته بالخوجاية ، لم تزده فرحا ولم تزده حزنا .. زادته قلقا وحيرة ..

واخيرا هذا الزواج المفاجىء .. زاده حيرة جديدة فى حياته

وشعر حسين برغبة فى ان يقوم ويمسك بفاسه ويضرب فى الصخر فى اى مكان .. يداه وهما ممسكتان بالفاس تضربان هما الشىء الوحيد الواضح فى حياته ، وسيتخيل أمامه فى الصخر .. صور الكنز والخوجاية واخت الشيخ طلباوى ، وحياته كلها . وسيضرب فى هذه الاشياء ، سيستمر يضرب ويضرب الى مالا نهاية ..

وقام حسين من جلسته

وفوجىء بصوت العمدة يسأله :

ـ رايح فين ياولدى ..

ونظر اليه حسين فى ارتباك ، خيل اليه ان العمدة كان يتجسس على افكاره لو عرف انه يقظان لما أطلق لهذه الافكار العنان ، وتركها تطوف برأسه ..

واجاب حسين فى ارتباك .

ـ انا رايح للخوجاية يا عمدة ..

فبدت الدهشة على وجه العمدة ، واتكأ على كوعه موشكا على الجلوس وساله فى حدة :

ـ تعمل آه ..

فاجابه حسين وقد زاد ارتباكه :

ـ جالت لى استنظرها لما ترجع ..

وكان العمدة قد اتم جلوسه ، وارتفع صوته :

ـ كيف تستنظرها .. فيه حاجة ؟! ..

وادرك حسين أن العمدة يشك فى هذا اللقاء ، وقرر الا يذهب الى الخوجاية حتى يزيل هذا الشك ..

وقال تروح انت ياعمدة .. انا تعبان وغرضى أنعس شوية

واطرق العمدة برأسه ، ثم رفعها وقال :

— روح يا ولدى .. يمكن عايزه حاجة ..

وذهب حسين الى بيت الخوجاية ، وكانت لم تأت بعد من رحلتها الى الشاطىء الشرقى ، فجلس القرفصاء على عتبة الباب الداخلى ، يتفرس آثار الاقدام فى الممر الرملى بين باب الحديقة وباب البيت . هذا اثر اقدامه عندما جاء الآن .. وهذا اثر اقدامها .. وهنا أثر اقدام من .. انها اقدام مطموسة ، وربما كانت لذلك الرجل الذى يقول العمدة ، انه تردد على بيتها طوال ليالى الكحته .. لماذا يجىء فى الليل ، لاشك أنه كان يرقد معها على السرير ، وكانت تقول له هو الآخر .. « انت سيدى » ..

وشعر حسين بالغيرة تعود .. انها لم تعانقه وتقبله كما كان يتوقع عندما اعلنها بنبأ الكنز .. جرت كالمجنونة الى ذلك الرجل من جنسها ، لتقبله وتعانقه ، هو سيدها الحقيقى الذى يعطيها المال الذى تشترى به الكنز .. لقد خدعته وخانته ، والعمدة يقول عنها انها « حرة فى نفسها » ولكنها ليست حرة معه ، سيضطرها الى الاعتراف بجرمها ، ويده قابضة على عنقها ، وسيلقى بها على الارض ويحطم رأسها بقدميه ، وسيسفك دمها ، ويراه يسيل على الارض ، وسيخضب يديه بالدم ، ويذهب الى العمدة ، ويضع كفيه امام عينيه ، وعندئذ لن يحس بالارتباك أمام نظراته ، وسيشعر بالخلاص وينقذ نفسه من احد أسباب القلق والحيرة اللذين يشعر بهما بل هذا هو السبب الحقيقى لحيرته وقلقه ..

وسمع حسين صوت حفيف ، كأن شيئا يحرك الهواء ورأى عباءة الخوجاية ثم رآها كلها امامه ، ومرت به دون أن تفوه بكلمة ، وفتحت الباب ودخلت ..

والتفت حسين اليها ، فرآها تنظر اليه ، محمرة الوجه ، لاهثة الانفاس ، واخيرا قالت له :

— ادخل .. جاعد عندك ليه ؟

ونهض حسين وتبعها ، ورآها تدس يدها فى صدرها ، وتخرج كومة من النقود .. اوراقا مالية كثيرة ، نظر اليها فى غباء ..

وتنهدت الخواجاية وقالت :

— كل الفلوس دى علشانك يا حسين ؟

ولم يجد لكلامها معنى ، لانه لا يفهم معنى هذه الاوراق الكثيرة ، احس بأن رأسه كالصندوق المغلق ، فوجم ، ولم يقل شيئا ..

واقتربت منه الخوجاية ، واحاطته بذراعيها فجاة ؛ ومالت عليه تقبله ، وقبل ان تلمس شفتاها شفتيه ، انتفض ودفعها بذراعه دفعة قوية ، فترنحت وسقطت على الارض امامه .. وصاحت فى ذعر تخالطه الدهشة :

—مالك يا حسين .. ايه اللى بتعمله ده ..

وخطا حسين نحوها ، ووضع قدمه فوق صدرها وقال بصوت خشن :

— ح اجتلك ..

وكان صدرها يعلو ويهبط رغم ثقل قدمه فوقها . وايقنت من نظراته اليها انه يعنى ما يقول ، فانكمشت فى رقدتها ، وادارت رأسها، ودفنت وجهها فى الارض حتى لا تراه ..

ولكزها حسين بقدمه قائلا فى قسوة :

— مين الراجل اللى كان بيعدى عليكى كل ليلة ..

ولم تقل شيئا .. ازدادت انكماشا . وجسمها كله ينتفض ويرتعش ..

وهوى حسين بيديه على رقبتها وكتفها .. وجذبها اليه بقوة ، فارتفعت مع يديه صارخة فى الهواء .. ورأى حمرة وجهها تتحول الى زرقة ، وملامحها مختلطة مشوهة ، عيناها جاحظتان .. وشفتاها متقلصتان ، واسنانها تصطك .. وهى تحاول ان تقول كلاما غير مفهوم .. بالفرنسية ..

ونظر حسين اليها فى دهشة ، كأنها امرأة اخرى غير تلك التى عرفها وبدأت الدموع الجامدة فى عينيها تنهمر وتسيل على خديها ؛ واستمرت فى الكلام بتلك اللغة الغريبة التى لا يفهمها .. كانت تنطق بها مولولة .. متوسلة ؛ وصوتها يرتفع شيئا فشيئا ، فيقيم بينها وبين حسين حاجزا من الغربة والنفور ..

ورفع حسين يده عنها واستدار صامتا . واتجه الى الباب ليخرج منه ..

ولكنها جرت خلفه وتشبثت به ..

وارتبك حسين .. ويديه قابضتان عليها تريدان الفتك بها ، يختلف تماما عن شعوره الان ، ويداها قابضتان على ذراعه متشبثان به ..

كان وجهها شاحبا مستطيلا ، كان شيئا يتمدد فيه ، ولون وجنتيها قد تغير من جديد ، كان محمرا ، ثم تحول الى زرقة ، وها هو اخيرا يطغى عليه الاصفرار . وكانت تبدو ضعيفة .. ضعيفة جدا ، كانها تتشبث به حتى لا تنهار وتسقط على الارض ..

ولكن ضعفها كان قويا .. عينيها وجسدها ويديها وانفاسها .. كل شيء ضعيف فيها ، يتشبث به فى قوة . وكانه يقول لن اتركك لانك لو تركتنى ساموت ، وانا لا اريد الموت ..

ولم يفهم حسين ما يحدث له ، اراد ان يتركها ويغادر بيتها حتى لايقتلها ، فارادت هى ان يبقى حتى لا تموت ..

وعاوده الشعور الذى يلازمه ، بانه يعيش ويتصرف فى حيـــاته مضطرا .. هناك قوة تحركه ، قوة اكبر منه ، انه يتاملها وهى تجذبه الى داخل البيت ، فلا يدرى لماذا امتنع فجاة عن قتلها ، ولا يدرى لماذا لا يحاول ما اعتزمه من جديد

ماذا جرى له ؟

لقد اعتاد كلما عصفت الحيرة براسه ، ان يلجا الى يديه ، يضرب بهما وهما ممسكتان بالفاس فى صخر الجبل ، أو يعمل بهما فى البنايات .. ولما عذبته الغيرة واحتار فى امر هذه المراة .. لجا الى يديه يريد بهما القضاء عليها ، ولكن يديه مشلولتان ..

هل شلت يداه عنها ، لانه احس انها أجنبية غريبة عنه .. كانه لم يكن يعرف ذلك من قبل ؟

ودوى صراخ غير مسموع فى راس حسين ، انت لم تقتلها لانك لا ترضى أن تراها جثة ..

نعم .. انه على يقين الآن انه لا يريد أن يراها جثة .. ان منظر الجثث بالنسبة له ، منظر مقدس .. نبيل ..

جثة مريم .. جثة ابيه .. انه يتذكر منظر الاشـــلاء والدماء فيشعر بالاحترام والرهبة والحزن والالم والخشوع ..

انه لا يرضى ان يحول الخوجاية الى مريم .. ولا يمكن أن تـكون الخوجاية مريم ..

ضاعت منك يداك يا حسين ، وهما مازالتا متدليتان من كتفيك .. لم تعد لديك يدان ، انهما مبتورتان كساقى ابيك..لم تعد تملك سوى تلك الراس التى تطن بالحيرة والاحزان والخيبة .. يداك لاتستطيعان القتل ، ولا تستطيعان الامساك بتلك الكومة من الاوراق المالية .. يداك لا تستطيعان الحصول على الكنز .. الكنز الذى حصلت عليه .. جثة مريم .. وجثة ابيه .. وجثة الخوجاية كما كان يريد .. هل هذا هو الكنز الحقيقى الذى حصل عليه ؟

وافاق حسين من الدوامة التى فى راسه ليجد نفسه جالسا على المقعد الوثير الذى اعتاد الجلوس عليه ، والخوجاية راكعة أمامه على ركبتيها وهى تقول له فى صوت مسكين :

ــ خد الفلوس يا حسين ، وخد الكنز بس سيبنى اعيش معاكم هنا ..

وحاول حسين عبثا ان يقول لها شيئا .. بحث عن اى كلام يخرج من فمه فلم يجد ..

واستانفت الخوجاية الكلام ، كانها تعرف انه عاجز عن الحديث .. قالت فى صوت متهدج :

ــ انا سبت جوزى واهلى وبلدى .. وجلت لنفسى انتم اهلى يا حسين ..

فقاطعها صوت مفاجىء من حسين ، ملىء بالغضب والانكار صوت كانه انفجار :

ــ لو كنت من نسوانا . كنت جتلتك .. انت خوجاية

فصرخت فى ألم :

ــ اجتلنى ياحسين . وماتجلش على خوجاية

واحس حسين بسخرية مرة تجتاح نفسه .. سخرية من كلامها ، ومن ركوعها على ركبتيها ، ومن جلسته على المقعد الوثير فانتفض واقفا ، يريد الخروج من هذا البيت الغريب .. ماله والبيوت ، وهو رجل يعيش فى الكهوف . ان البيوت تجرى فى داخلها اشياء تدعو الى السخرية .. الخوجاية والمهندس والسواح هم الذين يسكنون البيوت

.. انه يكره السقف والجدران والمقعد وهذه المائدة المكومة فوقهـا النقود وذلك السرير فى الحجرة الاخرى .. انه يريد ان يشفى مما فى راسه .. يريد أن يعود الى الجبل ..

وتركته الخوجاية دون ان تتشبث به بيديها .. اكتفت بملاحقته بصوتها قائلة :

ـ انا موش ح اشوف حد غيرك يا حسين .. ح اقعد هنا فى دارى .. مش ح اعدى الشط .. روح انت اتفسح معاهم فى البر الشرجى ، وعندك الفلوس اهى

ومضى حسين الى الباب ، دون ان يلتفت اليها فصاحت فيه يائسة :

ـ يا حسين .. جوللى اعمل ايه ؟

فالتفت اليها وقال ساخرا :

ـ اعملى اللى غرضك فيه يا خوجايه .. اتكلمى مع عمدتنا . انـا ماليأش معاكى كلام ..



الفصل الثامن

وما كاد حسين يقترب من كهفه ، حتى لمح اخت الشيخ طلباوى واقفة امام باب الكهف تنظر فى اتجاهه ، ثم تسرع بالدخول لتخرج من جديد وتظل عليه برأسها ، ثم تختفى داخل الكهف

و اسرع حسين فى خطاه ، ولكنه قبل ان يدخل الكهف ، رأى الفتاة تمرق الى الخارج ، وتعدو بعيدا ، بعد ان ارسلت اليه نظرة خاطفة أخيرة ..

وخيل الى حسين ، انها تفر منه ، لامن الخجل ، انما من بشاعته ، وتتبعها بعينيه وهو يتساءل فى قرارة نفسه هل يصلح لها زوجا بعد كل الذى حدث

واستقبله العمدة ببشاشة ، كان جالسا مكانه امام مدخل السرداب، يحتسى الشاى ، وعلى شفتيه ابتسامة عريضة

وصاح العمدة فى مرح :

ـ مرتك كانت بتخدم على يا ولدى .. ح تتجنن م الفرح موش مصدجه انها ح تتجوز زين زيك ..

وارتجف حسين لسمع كلمة « زين » .. ان العمدة يسخر من كل شىء . فليسخر كما يشاء ، كل ما يريده الآن هو أن يرقد داخل كهفه ، ان يحبس نفسه هنا ، لا يفكر فى شىء .. ولا يصنع اى شىء .. سينزوى هناك فى الركن البعيد .. وينام ..

ولاحظ العمدة وجوم حسين ، فسأله فى هدوء :

ـ الخوجاية جالت لك ايه ؟

فاجابه حسين وهو يرقد فى الركن الذى اختاره :

ـ جابت الفلوس ..

وسال العمدة فى لهفة :

ـ كام ..

واجابه حسين وهو يتمدد راقدا على ظهره :

ـ ما اعرفش .. فلوس كتير ياعمدة ..

والح العمدة سائلا فى لهفة :

ـ وجلت لها ايه ؟

وزفر حسين الهواء من رئتيه وقال :

ـ جلت لها مالياش معاكى كلام يا خوجاية .. الكلام مع عمدتنا ..

واطرق العمدة برهة ثم قال فى تردد :

ـ مالك يا ولدى ..

واجابه حسين فى صوت خفيض :

ـ ولا حاجة يا عمدة .. غرضى انعس شوية

فقال العمدة فى صوت حنون :

ـ انعس يا ولدى .. الليلة جدامنا شغل كتير ..

وانقطع الكلام بينهما ، ولم يعد يتردد فى الكهف سوى صوت انفاسهما .. تقطعه رشفات العمدة للشاى ..

وادار حسين عينيه الى صخور الكهف وتبلدت افكاره ولم يعد يدرى اهو نائم ام يقظان ؟

***

وانتبه حسين من جموده ، على يد تحركه ، واصوات رجال عديدين يملئون الكهف ، وصوت العمدة يهدر بالاوامر

ـ كل واحد يروح لحاله ويجمد فى بيته ، وسيبونى انا وحسين والرجالة اللى اتفجنا معاهم لوحدينا .. واياك اشوف جنس راجل يتحرك من مطرحه لغاية ما نخبركم ان احنا لاجينا الكنز

وتلفت حسين حوله فى ذهول ، كانه يحلم .. كان الليل قد اقبل وساعة فتح الكنز قد دنت ، والعمدة ملىء بالحيوية والنشاط ، وصخور الكهف نفسه تضج بانفاس الرجال وهمهمتهم .. وهو وحده يرقد خاملا متهالكا كالمريض ..

وصاح العمدة فى حسين :

ـ انهض ياولدى .. انت نعست كتير

فانتفض حسين واقفا ، كان صوت العمدة هو الذى يحركه ورأى الرجال يغادرون الكهف صامتين ، وبقى العمدة ورجلان آخران يمسك احدهما بمصباح ويمسك الثانى بالفئوس

وتناول العمدة المصباح من يد الرجل قائلا :

ـ وجف جدامك واحرسنا .. متخليش حد يجرب .

ثم التفت الى الرجل الآخر وقال له :

ـ وانت كمان اجف وياه ..

وتقدم الرجل الممسك بالفئوس الى حسين وسلمها له ، فامسك بها ، وهو ينظر اليها نظرات جامدة ، كانه لا يفهم الغرض منها ، ولماذا سلمت اليه ..

ورن صوت العمدة فى الكهف :

ـ هم بينا يا حسين ..

ولم ينتظر العمدة حسين ، تقدم الى مدخل السرداب مادا يده الممسكة بالمصباح وتبعه حسين كالمنوم ..

وخيل لحسين انه يدخل السرداب لاول مرة فى حياته ، كانت عيناه تقمان على جوانبه فى دهشة ، وينظر الى ظهر العمدة الذى يتقدمه ، وهو يتساءل بينه وبين نفسه .. اهذا هو العمدة حقا ؟ وينظر الى المصباح فى يد العمدة فيبهر الضوء عينيه ، فيظل يحدق فيه ، وهو لا يدرى أهو ضوء أو مصباح

كان الجمود فى عقله ، أشد من الجمود فى جسمه ، والبلادة فى رأسه اخطر منها فى حركاته ، وعندما وصلا الى ذلك الجزء من السرداب ، الذى يجب ان يزحف فيه بيديه ورجليه ، وقف مبهوتا لا يقوى على الانحناء ، حتى سمع صوت العمدة يشده اليه :

ـ جرب ياولدى .. انت فين ؟

فجثا على ركبتيه ، وزحف الى الامام حتى لحق بالعمدة الذى تمهل فى انتظاره ..

وبينما هو يزحف على بطنه فى جزء آخر من السرداب ، بذل جهدا كبيرا ليتذكر شيئا نسيه ، احس انه ينقصه ذلك الشىء .. ما هو ؟ .. انه لا يدرى كانت رأسه خاوية فارغة تماما ، ليس فيها فكرة واحدة ، ولا صورة واحدة .. الشىء الوحيد الذى يتحرك فى رأسه ، هو هذا الوهج الذى يملأ عينيه .. ذلك الوهج الذى يمسك به العمدة اثناء تقدمه الى الداخل ..

ولما عجز حسين عن التفكير ، لجأ الى حواسه يراقبها . تتبع صوت يديه الممسكتين بالفئوس ترتطمان بأرض السرداب ، وتتبع

صوت انفاسه ، وتتبع صوت العمدة وهو يزحف نشيطا امامه .. وتحسس التراب فى يديه ، وتحسسه على جبينه وفى خياشيمه ، كان هذا التراب هو كل حياته .. حيــاته التى نسى ماضيها ، ونسى مستقبلها ..

وهز حسين راسه ، وقال لنفسه بصوت مسموع :

ـ انا لسه نعسان ..

وسمعه العمدة ، ولكنه لم يتبين كلامه فقال له :

ـ بتجول ايه يا ولدى ؟

فرد حسين فى جهود :

ـ انا لسه نعسان

وضحك العمدة قائلا :

ـ اصحى امال .. فوج لنفسك .. احنا داخلين دلوقيت على المساخيط ..

ولم يقل حسين شيئا ، واصل زحفه وهو يفكر جاهدا ، فيمن هم المساخيط ، ولم يستطع التفكير ، فظلت الكلمة تتردد فى اذنيه .. المساخيط .. المساخيط .. المساخيط .. حتى سمع العمدة يقول له :

ـ جوم اجف يا حسين .. انت مش شايف ..

ووقف حسين .. كان قد وصل الى جزء مرتفع من السرداب يستطيع ان يمشى فيه على قدميه ..

وما كاد يتقدم بضع خطوات ، حتى راى امامه سدا من الصخر .. انه نهاية السرداب ..

وتبين حسين فى تلك اللحظة الخاطفة كل شىء .. وقعت عليه كل ذكرياته الضائعة منه ، بثقلها الكامل .. انهارت عليه كصخرة هائلة محطمة .. راى حسين العمدة ، وايقن لاول مرة منذ دخل السرداب ، انه العمدة ، وراى المصباح فى يده ، وعرف انه مصباح ، وراى نهاية السرداب ، وادرك المهمة التى جاء من اجلها .. وتذكر مريم واباه والخوجاية واخت الشيخ طلباوى والبنايات والمقاول والمهندس ، تذكر صباه البعيد ونداءات آتية اليه ، والسواح .. لم يبق شىء لم يتذكره ولم يحتدم فى راسه ..

وصرخ حسين وقد وقعت الفئوس من يديه :

ـ ايديا عطلانه يا عمدة .. متوجفة ..

فنظر العمدة اليه فى حيرة وعدم فهم وساله فى انزعاج :

ـ جرى ايه لايديك ياولدى ..

فاجابه حسين فى الم ، ويداه متدليتان الى جانبه :

ـ متوجفة .. بتنفز ..

فتقدم العمدة منه وقرب مصباحه وتحسس يديه وهو يقول :

ـ بتنفز ليه .. ايه اللى صابها ..

ـ ما اعرفش ..

ونظر العمدة الى حسين نظرة حادة . وقال له فى حزم :

ـ عار عليك ياولدى تخاف من المساخيط ثم رفع صوته بلهجة آمرة :

ـ اضرب فى الحجر .. ولا اضرب فيك .. والله اجتلك ولا يجول الرجالة ولدى حسين جبان ..

وانحنى العمدة والتقط احد الفئوس ووضعه فى يد حسين ودفعه الى الصخر صارخا :

ـ اضرب .. اضرب ..

وامسك العمدة بفاس آخر ، ورفعه مهددا به حسين

وضاقت عينا حسين ، وزم شفتيه ، وكتم انفاسه ، ثم رفع يده بالفاس ، مطلقا صيحة مفزعة ، وهجم على الصخر كانه مخلوق بشرى يريد سفك دمه ..

واستمر حسين يضرب فى الصخر وهو ينادى اباه واخته ، واشترك العمدة معه وظلت فاساهما ترتفعان وتنخفضان حتى نفذت فاس حسين داخل الصخر ، وهوت منه قطعة من الفراغ خلفه ، واستمرا يفتتان الصخر حتى فتحا ثغرة تكفى لان يمد رأس واحد منهما والمصباح فى داخلها ودفع حسين براسه داخل الثغرة ، بينما ادخل العمدة يده بالمصباح ، ووقف خلف حسين ينتظر ما سينبئه بانه رآه ..

ووجم حسين ، لم ينبس بكلمة ، ولم يخرج رأسه من الثغرة ولم يتاثر بوخزات العمدة له فى ظهره ، ولا بصيحاته الملهوفة « لجيت الكنز يا حسين » وحاول العمدة ان يخرج يده الممدودة بالمصباح ..

فاضطر حسين ان يتراجع الى الوراء . وهجم العمدة يريد أن يجذب حسين بكل قواه ولكنه لم يستطع .. فضرب وجهه بالمصباح .. فاضطر ان يتراجع الى الوراء .. وهجم العمدة على الثغرة ونفذ فيها براسه ، واطل داخلها ..

وسقط مصباح العمدة من يده ، فغرق الاثنان فى ظلام دامس ، وصاح العمدة وراسه ما زالت داخل الثغرة ، فلم يسمع حسين كلامه ، وظل العمدة يصرخ ، وقد فقد صوابه ، حتى امسكت به يدا حسين وجذبتاه بشدة لتنحيه عن مكانه ، وعاد حسين يحدق فى ظلام الثغرة ، وهو يصرخ بدوره باكيا :

ـ يابوى .. يابوى .. مريم .. مريم .. فين انتو

واستمر حسين ينادى إباه واخته زمنا لا يعرف مداه ، حتى بح صوته ، وتحرقت عيناه ، وثقلت راسه ، فهوى على الارض

وساد السرداب صمت بغيض ، حتى انفاسهما لم تكن مسموعة ، ولبثا الاثنان على هذه الحال فترة كانها الدهر ..

***

سكت حسين على عندما وصل الى هذا الحد من حكايته التى يرويها لى ، كأن من الصعب عليه ان يواصل الكلام ، وقد غلبه الانفعال ، وكان من العسير على ان اصبر على بقية حكايته ، وقد غلبنى الانفعال ايضا ..

واوشكت ان استحثه ليقول لى المزيد لولا اطراقة راسه ، وعلامات الاجهاد والحزن الواضحة على قسمات وجهه ، لا يخفيها ظلام الليل المحدق بنا ..

كان لابد ان احترم صمته ، وحولت عينى فى ضيق الى كهوف الجبل ، النيران التى كنت اراها عن بعد قد خبت ، وابو ليله قد كف عن اغانيه ، ونظرت الى ساعتى فلم اتبين عقاربها فأشعلت عود ثقاب ، وعلى ناره ، علمت اننا قاربنا الفجر ..

لقد تاخرت طويلا فى الجبل ، والمهندس ينتظرنى ، وربما ظن انى قتلت هنا ، فابلغ البوليس .. يجب ان اعود اليه فورا : قبل أن يأتى البوليس للبحث عنى ، ماذا يكون موقفى وانا اغادر الجبل فى حراسة البوليس ، ستنهار كل الصداقات التى اقمتها بينى وبينهم ، سترتفع

حواجز سميكة من الكراهية بيننا ، سينظرون الى كرجل خدعهم .. لن يفهموا ابدا اننى غير مسئول عن حضور البوليس ، كل ما سيفهمونه انى خائن ضحك عليهم وعرف اسرارهم ، ثم مضى مع البوليس ، ليفشى هذه الاسرار اليه ..

ولكنى لا استطيع ان اعود الان ، قبل أن اعرف الحكاية . انها لم تعد مجرد حكاية ، انها حياة كاملة عشتها ، وانقطاعها على هذا النحو .. موت لهذه الحياة ، موت لجزء من مشاعرى التى ولدت وخلقت واكتسبتها فى هذا الجبل ..

وقدمت لحسين على سيجارة ، وسالته فى قلق :

ـ شفتم ايه يا حسين .. شفتم الكنز ؟

فلم يرد على ، وحول بصره بعيدا عنى واحسست انه يريد ان يتكلم ، ولكن ماسيقوله ثقيل على نفسه ، متجمدا فى صدره

واشتد قلقى ، وخيل الى انى عرفت ماحدث ، فسالته فى تردد :

ـ لقيتو المقبرة مسروقة ؟

وهمس حسين فى أسى ، وكأنه خجلان :

ـ لجينا بير ..

ـ بير .. ازاى ..

ـ بير غويط واصل مالوش جرار ..

وشعرت كأنى اسقط فى هذا البئر بلا قرار ، اذن فهذه هى نهاية كل هذه المتاعب والاحزان . لا شىء سوى قاع لاقرار له .. لانهاية له ..

وتكشفت لى حقيقة الموقف ، ان وصولهم الى البئر اسوا ، من وصولهم الى مقبرة مسروقة ، ان البئر تعنى ان المقبرة مازالت موجودة ، بكل ما فيها من كنوز ، انها حتما هناك فى بطن الجبل ، لكن لابد لهم ان يبدءوا « الكحت » من مكان اخر .. من الاتجاه المقابل .. حيث لا يقف البئر فاغرا فاه العريض يتلقف كل من يريد ان يخطو الى الكنز ..

كحت جديد ، وسرداب جديد ، وضحايا جدد ، ودم مسفوك جديد .. هذا هو ما يعنيه البئر .. ان أى انسان لا يستطيع ان يتحمل كل هذا الشقاء فى حياته مرتين .. انه موقف جنونى ، كنز موجود

فيه الامل الوحيد فى الحيـاة ، وعقبات قائمة فيها كل اليـأس من الحياة ، كيف يتحمل حسين هذا الموقف . لقد بدأ يروى لى حكايته ، وهو يضحك كأنه لا يحمل هما .. قابلنى شامخا مترفعا كالجبل .. انه الجبل فعلا ، لاقيمة لكل هذه المناظر الطبيعية التى تحيط بى .. الجبل وكهوفه ، الصحراء ورمالها ، السماء ونجومها .. كل هـــذه الطبيعة لا قيمة لها بغير حسين .. انه اقوى منها واشد احتمالا منها ، واجمل منها ..

ونسيت لهفتى على العودة ، واحتقرت قلقى وخوفى من ابلاغ المهندس للبوليس .. ان البوليس لا يستطيع ان يأتى الان الى الجبل ، لو اراد الحضور فسينتظر حتى الصباح .. ولو جاء البوليس فلن يأتى للبحث عنى وحمايتى ، بل سيأتى للقبض على واخراجى من الجبل ، فانا لا اريد العودة الى القرية النموذجية .. المهندس اصبح شيئا تافها لا طعم له ، بمحاولاته الساذجة « لترقية » اهل الجبل .. القاهرة تحولت فى عينى الى كتلة ضخمة من التفاهة ، ليس فيها رجال ، وليـس فيها مشكلات .. فيها ضجة حمقاء وصخب ابله .. هذه هى القاهرة .. وادارة التحقيقات .. حيث يجلس الموظفون على المكاتب .. وامامهم ملفات ضخمة فيها أوراق كثيرة يقلبونها ويؤشرون عليها .. ما معنى ما يصنعونه فى ادارة التحقيقات .. كل ما يعرفونه أن مثل هذا الرجل الذى يجلس أمامى .. حرامى .. حسين على حرامى . ما اشد غباءهم وبلاهتهم .. كأنهم يقولون .. الجبل حرامى .. هل هناك غير المجانين يتهمون الجبل بالسرقة ..

وسمعت حسين يقول لى فجأة :

ــ انت راجل متعلم ومتنور . جولى أعمل ايه ؟

كان العلم الذى درسته فى الجامعة ، سيفيده فى حل مشكلته .. مسكين ، إنه يجهل أن العلم ، هو الذى انفى الى هذا العلاج الاحمق للمشكلة .. بناء قرية نموذجية ، يعيشون فيها بغير عمل كأن الرزق سيسقط عليهم من السماء .. هذا هو ما اقترحه العلم ، بيوت نظيفة فيها مراحيض و « سيفونات » وسكان فقراء لا يملكون قرشـــا يشترون به طعامهم ولا يملكون ظروفا تتيح لهم العمل ..

العلم قد أصابه الخوف والهذيان عندما مس مشكلتهم ورغم ذلك

ما زال حسين يتساءل عن العلم والنور ، وهل هو قادر على تقديم العلاج لهذه المأساة ..

وصحت فى حسين يائسا :

ــ مش عارف أقول لك ايه يا حسين فابتسم ابتسامة طيبة فاهمة وقال :

ــ أنت مبتجولش زى غيرك انزلوا البنايات ..

فقلت فى شبه اعتذار :

ــ كنت باقول كده الاول .. لــكن دلوقت أقول لــكم بصراحة ماتنزلوش ..

وجدتنى اندفع متورطا معه ، فى تحدى مشروع الحكومة ، ببساطة متناهية

وهز حسين رأسه راضيا ثم قال :

ــ تعرف انت مين اللى عمل الحريجة فى الشونة ؟

وقبل أن أسأله من الذى أشعل الحريق ، سمعته يعترف

ــ أنا

ولوح بيديه وقد رفع صوته :

ــ حرجتها وح احرجها كمان وكمان

انه يدلى باعتراف كامل عن جرائمه .. متجـــاهلا تماما صفتى كمحقق ، وكرجل يقتضيه واجبه ، وامانته فى عمله ان يبلغ فى الحال عن هذه الجرائم ..

ولكنى لم أتأثر مطلقا ، بالازمة التى تدفعنى اليها اعترافات حسين . كنت قد نسيت صفتى كمحقق ، وفقدت معنى وظيفتى ولم أعد افهم مدلولها فى هذا المكان ..

لم أعد قادرا على تصور أفعال حسين على انها جرائم يعاقب عليها القانون ..

ولو فرض انى تغاضيت تماما عن قسمى ، ووعدى لاهل الجبـــل بالا اخونهم .. أو ابوح بشىء يضرهم ، ولو فرض انى تمســـكت بواجبى كمحقق ، وأبلغت عن حسين على ، وكتبت اعترافات كاملة فى تقريرى ، ماذا سيحدث بعد ذلك ؟

كل ما سيحدث ، هو أن تزداد مصائب حسين ، مصيبة أخـــرى

جديدة ، مصيبة تأتيه من حيث لا يتوقع ، سيحقق معه صديقى وكيل نيابة الاقصر ، وسيدون محضر تحقيق على هذا النحو

س ــ انت متهم بكحت الجبل وسرقة الاثار ..

ج ــ انا كحت .. صح .. لكن انا موش حرامى ..

س ــ يعنى انت معترف بالكحت ..

ج ــ أيوه ..

وسيقفل وكيل النيابة المحضر عند هذا الحد ، وقد تملكه الظفر والارتياح ، لحصوله على اعتراف صريح ، وسيقضى حسين بعد ذلك حياته فى السجن ..

هكذا سيلخص محضر تحقيق النيابة • حياة حسين على ، وحياة أهل الجبل جميعا ، ومشاكلهم كلها ، فى سؤالين وجوابين واعتراف .. ثم سجن ..

انه ظلم .. ظلم بشع لا يمكن أن أساعد عليه ، حتى ولو اتهمت بانى غير امين فى عملى .. اتستر على الجرائم ، واخالف القـــانون الذى يجب على أن اطبقه

وحسين على يعرف جيدا ، انى لن اظلمه .. لذلك رضى أن يبوح لى بسره .. كاملا .. انه يريد أن يروى لى حياته ، لانه حائريائس ، يريد حلا عاجلا لمشكلة حياته .. حتى الغرباء عنه ، مثلى يطلب منهم أن يساعدوه ، وليس له سوى شرط واحد أن يمنحـــوه ثقتهم ، ولا يطلعوا على جراحه الدفينة ، ليسخروا منها ، أو يزيدوها طعنـــــا وتجريحا ..

وفجأة وقف حسين على قدميه ، وحدق بعيدا فى الظلام .. وتبعت إتجاه نظراته .. فرأيت شبحا يسير عن بعد .. وكان سواد الليـــل قد بدأ يتحول الى زرقة داكنة عند الافق الذى يتجه اليه الشبح ..

وسألت حسين فى صوت خفيض :

ــ مين ده ياحسين ..

فأجابنى فى بطء ..

ــ الخوجاية ..

ــ رايحة فين ؟

ــ رايحة تصلى ..

وسألته فى عجب :

ــ هى مسلمة ؟

وأجابنى حسين وهو مازال يتابعها بنظراته .. وشبحها يكاد يختفى فى الافق :

ــ لا .. دى خ تصلى جال للفراعنة

ــ بتصلى للفراعنة .. ازاى ..

فاستدار الى حسين وقال على شفتيه ابتسامة :

ــ تعالى معأيا ..

ومد حسين يده الى ، ليساعدنى على النهوض ، وتلفت باحثـــا عن الحمارة فلم أجدها ، وفهم حسين انى أبحث عنها فقال :

ــ الحمارة مشت من بدرى ..

وجـــذبنى من يدى برفق ، ومشى مسرعا وانا أهرول وراءه حتى وصلنا الى طريق بين هضبتين عاليتين ، اجتزناه حتى منتصفه ، ثم وقفنا عند منحدر متفرع من الطريق ، يؤدى الى فوهة كبـــيرة داخل الهضبة ..

وسرنا مع المنحدر فى حذر ، ودخلنا الفوهة الصخرية ، وهبطنا منحدرا آخر ، ووقف حسين فجأة ، وهمس فى أذنى مشيرا الى أن أدلف فى سرداب على يمينى قائلا :

ــ ادخل طل عليها ..

وتقدمت داخل السرداب ، حتى وجدت بابا قصيرا ، لمحت داخـــله بهوا كبيرا مليئا بالنقوش الفرعونية .. انه أحد المقابر المكتشـــفة التى يزورها الســواح فى الصباح

وتقدمت برأسى داخل البهو ، وانا أؤخر قدمى الى الخارج فرأيت السيدة الفرنسية راكعة ، وقد أعطتنى ظهرها رافعة رأسها الى سقف المقبرة .. سقف فى لون السماء ، منقوش عليه نجوم وآلهة .. كأنها تصلى ..

وتملكتنى رهبة سمرتنى فى مكانى بضـــع دقائق • وكأننى فى كابوس أو عالم مسحور ، ثم انتفضت ، وعـــدت أدراجى لحسين ، وخرجنا الى الطريق عائدين ..

وسألت حسين ونحن نجتاز الطريق بين الهضبتين ..

ـ ايه الحكاية .. بتعمل كده ليه !
فاجاب حسين وهو ينظر امامه :
ـ اتجننت ..
ـ خلاص .. سابت حكاية الاثارات
ومشى حسين بضع خطوات ، قبل أن يروى لى ماحدث لها

***

فى تلك الليلة التى دخل فيها العمدة وحسين السرداب ليفتحا الكنز ، ظلت الخوجاية يقظانة ساهرة فى بيتها ، تنتظر فى اية لحظة النبا الكبير ..

وفكرت أكثر من مرة ، فى أن تخرج من بيتها ، وتذهب الى كهف حسين ، لتستقبله عند خروجه منه ، ولكنها كانت تمدل فى اللحظة الاخيرة ، وينتابها خوف من لقاء حسين ، انها لا تعرف ماذا يدور فى رأسه ، وقد يصيح غاضبا فى وجهها بمجرد أن يراها ، ويقسم الا تنال شيئا من الكنز ، لقد رفض المال الذى قدمته له ، وسخر منها فى مرارة ، وقال لها انه لن يتفق معها على شىء ، واذا أرادت أن تتكلم مع احد ، فلتتكلم مع العمدة . ثم انها وعدته بان تحبس نفسها فى بيتها ولا تخرج منه ، ولابد أن تتمسك بوعدها ، حتى لا تزيد من ثورته عليها ، انها تفضل أن تستثير عطفه ، ولن تفلح فى ذلك الا اذا حبست نفسها فعلا ، وقالت لكل من ياتى اليها انها لن تخرج من بيتها ، حتى يأذن لها حسين ، وسيذهب اهل الجبل جميعا ، ويتشفعون لها لدى حسين ، ويسالونه عن سبب تصرفها الغريب ، وسيحرجون حسين ، لانه لن يقوى على تفسير فعلتها .. لن يقول لهم انها تعتبره سيدها ورجلها ، انه كان على علاقة بها . وسيضطر حسين الى المجىء اليها . يقول لها انه صفح عنها ، ومن يدرى ماذا يحدث عندما يجىء . ربما استطاعت ان تعيد علاقتها به ، وربما اقنعته بعد ذلك بالزواج منها ، وعاشا معا فى الجبل تستمتع بجسده القوى الذى يعيد اليها نشوة الشباب كلما مسها ، وتستمر فى نفس الوقت فى مغامرات « الكحت » باحثة عن كنوز جديدة ، دون أن يسخر منها أحد يوما من الايام ، كما فعل حسين ، ويقول لها انها خوجاية ، وليست من اهل الجبل

لقد تعرضت للطرد من الجبل أكثر من مرة ، ولابد أن تحصن نفسها ضد هذا التهديد المعلق فوق رأسها كالكابوس . طردها العمدة يوم ماتت زوجته مريم ، واضطرت الى ان تتوسل اليه وترتمى عند قدميه باكية ، وطردها حسين وهو حزين على والده وشقيقته ، ولكنها نجحت فى جذبه اليها ، وقدمت له جسدها فكان كلما ضمها اليه بذراعيه القويتين ، احست كانه يضمها الى الجبل كله ، وانها تخلصت نهائيا من تهديد الطرد .. ولكن جسدها لم ينجح فى مهمته ، غضب عليها ، وغار من ذلك الرجل الذى تردد على بيتها ، ولم تلهب الغيرة حبه ، بل أشعلت حقده واحتقاره لها ، فكاد يطردها من الحياة كلها ، لا من الجبل وحده ..

وكلما استرسلت الخوجاية فى هذه الافكار ، تزايد قلقها واشتدت مخاوفها ونظرت الى النقود التى ستشترى بها الكنز لعلها تجد فيها سببا للاطمئنان

ان الكنز لا معنى له ، بغير هذه النقود ، انهم يريدون الطعام والملابس والذهب الذى سيحصلون عليه لن يطعمهم ولن يكسوهم ، لابد أن يحولوه أولا الى نقود .. الى هذه النقود بالذات ، التى تملكها ..

انها قوية بهذه النقود ، فلا داعى للخوف اذن ، ولتدس النقود فى صدرها وتذهب الى كهف حسين وتنتظر خروجه وستلوح له بالمال امام الجميع ، وعندئذ لن يستطيع احد ان يقاومها

ودست الاوراق المالية فى صدرها ، واتجهت الى الباب تريد الخروج ، ولكنها تذكرت من جديد ، أن حسين رفض أن ياخذ المال عندما عرضته عليه ، وكان يستطيع أن ينتهز الفرصة ويخفى جزءا منه ، بعيدا عن أعين العمدة وأهل الجبل ، فيزيد من نصيبه ومن ثرائه .. كيف رفض حسين المال ؟ انها لا تفهمه ، ما زال الرجل الذى ضمها معه سرير واحد ، غريب غامض مبهم لديها .. ان ملمس جسده العارى ، لا يكفى لان تعرف عنه كل شىء .. واذا كانت لا تعرف ماذا يدور فى رأس حسين ، فهى لا تعرف قطعا ماذا يدور فى رءوس أهل الجبل جميعا . . ما أدراها ان حسين لو رفض المال امامهم فسيتخلون عنها هم ايضا ، ويضيع منها الكنز والجبل معا

خير لها أن تحبس نفسها مكانها ، وتنتظر ، انها لا تملك سوى الانتظار الذى يفتت أعصابها ، ويدفع بها الى حافة الجنون .

وانتظرت طوال الليل ، واقبل الصباح وهى واقفة عنـد بابهـا المفتوح ، تنظر الى الخلاء أمامها ، كانها أم تنتظر عودة ابنها التائه ، عيناها تدوران فى محجريهما زائغتان وراء اى شىء قد يخيل اليها أنه يتحرك قادما نحوها .. ولكن الشمس ارتفعت وانتشر ضـوء الصباح وهى لا تتلقى اى نبأ .. ورأت عن بعد رجالا يتحـركون ، وبذلت جهدا كبيرا ، وهى تصيح منادية لهم باعلى صوتهـا ، فلم يلتفتوا اليها ، ومضوا فى سبيلهم كانهم لا يسمعونها ..

ومر رجل اخر عند الافق ، ونادته صارخة والتفت الرجل اليها ، ووقف برهة ينظر ناحيتها ، وهى تواصل الصراخ ، وتلوح بيدها ، ثم استدار الرجل مبتعدا عنها ..

ولم تصدق نفسها ، خيل اليها أن من تراهم ليسوا رجالا حقيقيين مجرد اشباح فى خيالها ، ان من عادة رجال الجبل أن يلبوا نداء المستغيث ، ان يسرعوا الى مصدر اى نداء ، فمابالهم لا يكتـرثون بصراخها . أن من تراهم ولاشك ، اشباح . او ..

وفزعت للخاطر الذى برق فى رأسها هل بيتوا لها امرا هل حصلوا على المال . هل حدث هذا ؟

وجرت عبر حديقتها الصغيرة ، حتى وصلت الى بابها وتقلصت يدها على الباب ، لا تجسر على فتحه والخروج منه ، طغى عليها ذلك الخوف الذى سهر فى قلبها طوال الليل ، وأيقنت أنهم سيقتلونها فى اللحظة التى ستعبر فيها باب الحديقة ، انهم يحاصرونها الان ، وهم مختبئون خلف الصخور ، وعندما تتقدم فى العراء ستطير رصاصة فى الهواء وتستقر فى قلبها او دماغها

وغيم اليأس القاتل على عينيها ، انها لا تطيق القتل على هذا النحو .. ليتها تركت حسين يقتلها ، قتلها فى ذلك الوقت كان شيئا مفهوما .. أما مصرعها فى العراء برصاصة تنطلق من مكان مجهول ، فأمر غامض فظيع لا تستطيع أن تتحمله

وتذكرت فجأة باريس التى كانت تعيش فيها وهى صغيرة وزوجها عالم الاثار الذى اتى بها الى هذا المكان ، وودت لو أنها تصرخ فيسمعون

استغاثتها فى باريس .. او فى الشاطىء الشرقى . نعم . هناك فى الشاطىء الشرقى ، الرجال الذين ينتظرون الكنز لتهريبه . ستقبع فى دارها ، وتقفل الابواب وتنتظرهم حتى ينتابهم القلق على الكنز وعلى المال الذى سلموه اليها ، فيسعون وراءها ، ويأتون لانقاذها ..

ودخلت البيت ، واغلقت عليها الابواب والنوافذ ، انكمشت واقفة فى أحد الاركان ، تنتفض وترتجف رعبا ..

ومضى وقت لا تعرف أكان ساعات أم دقائق ثم سمعت طرقا على الباب ..

وجرت الى الباب والتصقت به ولكنها لم تجب ..

واستمرت الطرقات على الباب وقد شعر الطارق بحركتهـا وهى تسرع مندفعة الى الباب وتلتصق به ..

وارتفع صوت امرأة :

ــ افتحى ياخوجاية

وهمست الخوجاية بصوت لاهث مسموع :

ــ انت مين ؟

أنا مسعده .. اخت الشيخ طلباوى

وترددت الخوجاية فى فتح الباب لهـذه الزائرة التى لم تتعود استقبالها فى بيتها ، أتكون هذه الفتاة ، هى بداية كمين معد لاخراجها من البيت ..

ورفعت الخوجاية صوتها المنفعل

ــ جايه غرضك ايه يا مسعده ..

فأجابت مسعدة فى نفاذ صبر :

ــ بجولك افتحى الباب ..

ودقت الفتاة بيدها على الباب فى الخارج فانهارت مقاومة الخوجاية، وفتحت الباب يائسة ..

ووقفت مسعده مكانها حائرة ، تنتقل عينها بين الخوجاية وداخل البيت ، وهى تنتظر كلمة ترحيب ، او دعوة الى الدخول فيصدها وجوم الخوجاية ، وشحوب وجهها ، وعيناها الزرقاوان الباردتان ، اللتان لا تفصحان عن اى معنى ..

وقالت مسعدة فى ارتباك :

— غرضى أجولك كلمتين سر ..

وارتجفت الخوجاية ، فزعت من « كلمتين سر » وفكرت فى اغلاق الباب فى وجه مسعده ، توقعت ان تستدرجها الفتاة خارج البيت ليقتلوها بالرصاص ويتخلصوا منها ، ولكنها شعرت بالحنين الى صوت مسعده ، انه يشعرها بانها ليست وحدها .. ليست منبوذة محبوسة فى بيتها .. ثم صوت مسعدة يستطيع ان ينبئها بمصير الكنز ..

وقالت الخوجاية فى صوت ضعيف :

— ادخلى ..

وتقدمت مسعدة الى داخل البيت ، واسرعت الخوجاية باغلاق وراءها..

وأشارت الى مقعد ، ودعت مسـعدة الى الجلوس عليه وهى تسالها :

— انت اخت الشيخ طلباوى

واجابت مسعدة وهى تجلس القرفصاء الى جانب المقعد ، بينمـا جلست الخوجاية على مقعد اخر ..

— أيوه ..

ولم تهتم الخوجاية بجلوس مسعدة القرفصاء ، اعتادت رفض نساء الجلوس على المقعد كلما جئن الى بيتها ، يطلبن منها معالجة عيـون أطفالهن ..

وبحثت الخوجاية عن وسيلة تسال بها عن الكنز .. انه امر طبيعى ان تسال عما حدث ، فهى مشتركة فى الكحت بمالها ، ولكنها حذرة خائفة ، قلبها يحدثها ان حسين على اقنع اهل الجبل الا يسلموه لها ..

واطرقت الخوجاية ولاذت بالصمت ، حتى سمعت مسعدة تقول لها فى خجل ، وهى تعبث باصابعها فى مسند المقعد :

— أنا حتجوز ياخوجاية ..

ورفعت الخوجاية رأسها ، ونظرت الى الفتاة فى ذهول .. أيمكن ان تكون هذه الزيارة بريئة ، وليست كمينا كما تتوقع ومرت بهـا لحظة خاطفة من الطمأنينة ، وانتهزت هذه اللحظة فتجاهلت كلام مسعدة ، وسالتها فى لهفة وعصبية :

— العمدة وحسين فين يا مسعدة .. لجو الكنز .. عملوا ايه ..

ودفست مسعدة رأسها فى صدرها ، ووضعت يديها على أذنيها ، كأنها لا تريد أن تسمع ما تقوله ..

— ملجيوش حاجة .. لجير بير ..

وصرخت الخوجاية فى شراسة وهى تنتفض :

— بير .. بير كيف .. انت كدابة .. كلتكم كدابين ..

فلطمت مسعدة بكفيها على اذنيها وصدغها وقالت فى حرقة :

— ياريتنى كدابة .. ياريتنى كدابة .. كلتهم حالوا كده .. ولا واحد صدج العمدة وحسين .. كلتهم دخلوا الكحت وشافوا البير .. وطلعوا .. محدش بيصدق الا لما يشوف بعينه .. الرجالة والنسوان والعيال .. كلتهم بجو زى الواد سلماوى المجذوب .. روحى شوفى بنفسك .. روحى يا خوجاية ..

فنظرت اليها الخوجاية فى ريبة .. هذا هو الكمين الذى أعدوه لها، يريدون استدراجها الى السرداب ، ليفتكوا بها هناك ، ويستولوا على مالها ، بعد أن استولوا على الكنز ..

وصاحت الخوجاية فى غضب :

— انا مش خارجة من بيتى لحد ما يجينى حسين .. روحى لحسين، وجوليله يعدى على دلوجيت .. حالا .

ولم تتحرك مسعدة من مكانها كأنها لم تسمع طلبها ، ونظرت اليها فى تصميم ، وقالت فى صوت حاد :

— اسمعى كلامى الاول يا خوجاية ..

وهتفت الخوجاية كالمجنونة . وهى تنقض على مسعدة وتجذبها بيدها لتنهض :

— انهضى يابت .. موش ح أسمع حاجه ، وموش ح أجول حاجة لحد ماييجى حسين هنا ..

وفوجئت الخوجاية بمسعدة تقف وتمسك بها بيدين قويتين ، وتدفعها الى المقعد الذى كانت جالسة عليه ، وتضطرها الى الجلوس ، وهى تقول فى تصميم حديدى :

— جلتلك اسمعى كلامى .. الكنز ولجيناه بير .. ح نجعد نبكى عليه . ياما بكينا .. والجبل ما انتجلش من مطرحه .. الكنز

لسة جواه .. انا خايفه حسين يطفش ، يروح الزاحات والا يركب اللورى على بحرى ما يرجعش واصل . ولا نتجوزش

واستمعت الخوجاية الى كلام مسعدة فى غير فهم . كانت تنظر اليها مذعورة وعيناها الزرقاوان مشدودتان الى عينيها السوداوين ، وهى لا تكاد تصدق أن مسعدة فتاة واحدة .. انها تتكلم وكأنها جيش من النساء لا تستطيع ان تصمد امامه ..

ومضت مسعدة تقول وقد رات الخوجاية مستكينة مستسلمة :

ــ جيت لك علشان تشترى لى ..

وسكتت مسعده لحظة ، وهى تلمس يدها فى صدرها ، ثم استأنفت تعدد ما تريد شراءه وهى تخرج صرة معقودة وتفكها باصابعها فى عصبية .. كانت تريد شراء حلق ، وزجاجة عطر ، وبعض الاقمشة الحريرية ، وافلحت فى فك العقد الكثيرة واخرجت من الصرة أوراقاً مالية من فئة الجنيه ، والخمسين والعشرة قروش ، ومعها نقود فضية ومعدنية ، مدت بها يدها الى الخوجاية ..

واستولت الدهشة على الخوجاية .. وهى لا تصدق ما تراه .. لم تعد تصدق اى شىء .. ان معها نقودا كثيرة تريد اعطاءها لاهل الجبل فاذا بفتاة فقيرة منهم ، تاتى اليها وتقدم لها نقودا ..

وهزت رأسها فى انكار ، وتراجعت امام منظر النقود الممدودة اليها ، كأنها نقود مسحورة تخشى ان تلمسها ..

وصاحت فى فزع :

ــ الفلوس دى بتاعة ايه ؟! .

فقالت لها مسعدة فى صبر :

ــ دى الفلوس اللى ح تشترى بيها الحاجة ..

وسالت الخوجاية فى غير فهم :

ــ حاجة ايه ..

وتنهدت مسعدة ، وبدات تروى لها من جديد ، فى صوت هادىء ، رغبتها فى الاستعداد للزواج بحسين على ..

واستمعت اليها الخوجاية هذه المرة ، وفهمت كل كلمة قالتها .. ظلت كلمات مسعدة فى اذنيها ، وكأنها خناجر حادة تنغرس فى عظام رأسها ..

حسين على سيتزوج هذه الفتاة التى تقف امامها ، وهى تريد منها ان تشترى لها معدات الدخلة .. حسين على قد ضاع منها .. والكنز ضاع . حصلوا عليه ، ثم جاءت هذه الفتاة لتكذب عليها ، ولتقول انهم وجدوا بئرا . من اين جاءت هذه الفتاة بالنقود . باعوا الكنز لآخرين ، وحصلوا على المال

وهذا هو بعض نصيب الفتاة منه .. نبذوها .. سخروا منها . لم يعد لها مكان بينهم .. اين تذهب . الى من تلجأ ..

وقاومت الخوجاية افكارها بصعوبة .. وبذلت جهدا كبيرا لتضبط اعصابها ، ولتحتفظ بعقلها متزنا ، وسالت مسعدة فى هدوء مصطنع :

ــ مين اعطاكى الفلوس دى ..

واجابتها مسعدة فى صوت ملىء بالاسى :

ــ دول اربعة جنيه وتلاتين جرش وتمانية مليم . حوشتهم فى تسع سنين ..

وقاطعتها الخوجاية بعد ان انهارت مقاومتها وافلت زمام اعصابها .. زعقت فيها :

ــ دا نصيبك م الكنز يا كداية .. جوليلى بعتوا الكنز لمين يا حرامية .. يا اشرار ..

ولم تجزع مسعدة من اتهامها .. حاولت أن تشرح لها ببساطة ، كيف ادخرت كل هذه النقود ، واختلط صوت المرأتين .. الخوجاية تسترسل فى السباب .. ومسعدة تتكلم فى هدوء وصبر ، موضحة لها كيف جمعت نقودها من ثمن الاطباق القش التى باعتها يوما ما للخوجاية ، وتلوح باحد الجنيهات وهى تذكرها أنه نفس الجنيه الذى اعطته لها وعليها أن تفحصه لتتأكد من ذلك .. وهذه الخمسون قرشا اخذتها من شقيقها الشيخ طلباوى عندما جاء لاول مرة بعد تعيينه فى أسيوط ، وهذا الريال أخذته منه فى العيد الكبير منذ ثلاث سنوات ، وهذه العشرة قروش اخذتها من أحد السواح بعد ان التقط لها صورة فوتوغرافية ، و ..

وتوقفت مسعدة عن شرحها ، اذ تحول سباب الخوجاية الى كلمة غير مفهومة .. يصحبها بكاء ، تطور الى عويل وتشنجات حادة ..

واقتربت مسعدة منها تريد أن تربت عليها وقد تأثرت لبكائها ، ولكن المرأة هجمت عليها تصفعها وتضربها فى ضراوة وعداوة ..

وجرت مسعدة خارجة من البيت وهى على يقين أنها جنت . . .



الفصل التاسع

وعلم اهل الجبل من مسعدة ، أن الخوجاية قد جنت ، فأسفوا عليها .. ورثوا لحالها ، وطلب العمدة من حسين أن يذهب معه اليها ليريا ما أصابها .. ووافق حسين ، واتجه الاثنان الى بيتها .. وعلى الرغم من انهما وصلا بعد عودة مسعدة بقليل ، الا انهما لم يجداها فى البيت . وقال لهما احد الرجال انه رآها تجرى نحو الشاطىء الشرقى ، وهى تحدث نفسها بكلام غير مفهوم ..

ووصلت بعد ذلك أنباء من الشاطىء .. انها عبرت النيل الى الاقصر وكانت تبكى وتضحك وتتكلم بلغتها غير المفهومة مع المراكبى .. وما كادت المركب تقترب الى الشاطىء ، حتى قامت تريد أن تقفز منها ، وهى تظن انها تستطيع بلوغ الارض لولا أن امسك بها المراكبى ، ولم يطلقها من يديه حتى وصلت المركب الى الشاطىء فعلا ، فانفلتت منه ، وجرت لاتلوى على شىء ..

وانتظرت مسعدة عودة العمدة وحسين

ورات حسين يأوى الى كهفه ، والعمدة يواصل السير ، فذهبت اليه ، وحدثته عن خوفها من هروب حسين من الجبل وطلبت منه أن يكلف احدا من الرجال بالذهاب الى الاقصر ، ليشترى لها ما تريده ، وليكتب خطابا يرسله الى شقيقها فى اسيوط ، ليستدعيه فورا لعقد زواجها فى الحال ..

وقالت مسعدة للعمدة فى صوت قوى جرىء :

ـ لو حسين متجوزش يا عمدة .. ح يطفش م الجبل وما عدناش نشوفه واصل .

وأمن العمدة على كلامها ، وقال لها ان هذا هو رأيه ايضا وعجب العمدة لقدرة مسعدة على التفكير فى الزواج فى مثل هذا اليوم وتصميمها على اتمامه بسرعة ، ولكنه اعترف بينه وبين نفسه ، انها

على حق ، فربما كان الزواج هو الوسيلة الوحيدة للابقاء على حسين على فى الجبل بين أهله .. كيف استطاعت مسعدة أن تفكر وتتصرف بمثل هذا الصفاء ، بعد لحظات من وقوع الكارثة التى هزت الرجال جميعا .. وهزته هو أيضا

وتأمل العمدة وجهها الصريح ، فتذكر وجه أخيها الشيخ طلباوى .. نفس تقاطيع الوجه الوسيم ، تزيد عليه أنوثة وكبرياء . نفس الطموح والجرأة عند الاثنين . الطموح الذى دفع الشيخ طلباوى الى الفرار من الجبل وهو صبى صغير ، ليذهب الى اسيوط ، حيث يتعلم ويصبح موظفا فى الحكومة يتكبر على اهله ، ويتنكر لحياة الجبل ، ويريد أن يفرض سيطرته على شقيقته ليأخذها معه الى أسيوط . هو نفسه الطموح الذى دفع بمسعدة فى طريق مناقض تماما للطريق الذى سار فيه أخوها .. فتمسكت بالجبل ، ورفضت عروض شقيقها ، وتحدته حتى لا تذهب الى اسيوط .. طموح الرجل جعله يهجر أهله ، ويعيش فى المدينة ويتزلف للكبراء الاغنياء ، وطموح المرأة جعلها تتمسك بأهلها ، وتعيش فى الجبل ، وتحلم بالزواج من حسين أحسن شباب الجبل ..

وابتسم العمدة ، وهو يسترسل فى أفكاره ، متأملا وجه مسعدة وطافت برأسه صورتها عندما كانت تأتيـــه باكية تدعك عينيها المحمرتين ، وتشكو له أخاها ، لانه يهددها ويضربها ليضطرها الى الذهاب معه الى أسيوط ..

كان يقول لها أول الامر :

ـ اسمعى كلام أخوكى يابت . احنا منعرفش نسوان يعصوا كلام رجالتهم

فتزغر فيه بعينين شرستين وتقول له فى صوت مفترس :

ـ لا .. يجتلنى ولا عديش معاه على أسيوط ..

ولولا أن الشيخ طلباوى لا يستطيع أن يقتل ، بعد أن أخذ مظهر رجال الدين الاتقياء ، لكان قتلها من زمن ، ولولا انه فزع من صراخها وبكائها ، واستعدادها للشجار معه بأظافرها وأسنانها لما تركها ، ولانتزعها وحملها معه

بقيت مسعدة يتيمة وحيدة ، تصنع أطباق القش ، وتعيش مع عمتها العجوز التى هجرها زوجها منذ عشرين عاما أو أكثر

واستمعت مسعدة الاف المرات الى قصة زوج عمتها ، وهى ترويها لها كل ليلة منذ كانت طفلة صغيرة ، انها قصة تتكرر مع نســـاء كثيرات فى الجبل .. يأتى صباح يوم ، فتجد الواحدة منهن زوجها قد اختفى .. فتمضى بقية حياتها ترقب الافق البعيد لعلها تـــراه قادما .. ولكنه لا يعود .. وهى لا تيأس .. وكرهت مسعدة ذلك المكان البعيد وراء الافق ، حيث يختفى الرجال .. ولم تشعر بالطمأنينة طوال حياتها وهى تنظر حيث الشمس تغيب أو تشرق ، كأن الحزن يطغى عليها فتتلفت حولها الى صخور الجبل وكهوفه وأهله ، تلتمس فى منظرهم الطمأنينة والحنان ، واعتادت مسعدة أن تنتظر هى الاخرى زوج عمتها ولكنه لا يعود .. وتنتظر يوما بعد يوم ، وسنة بعد سنة .. كل صباح وكل مساء ترقب الافق وكان يخيل اليها انه سيجىء ومعه أبوها وأمها من عالم الاموات ..

وسألت مسعدة أحد الايام العمدة ، هل صحيح أن « المساخيط » سيبعثون من جديد ، فأكد لها انهم سيبعثون وســـيعودون الى الحياة ، ولذلك يحتفظون فى مقابرهم بطعامهم وأموالهم ، وتحتفظ النساء بحليهن وجواهرهن ..

واطرقت مسعدة بعد أن استمعت الى كلام العمـــدة ، ثم رفعت راسها وقالت له وكأنها فى حلم :

ـ طول ما عمتى مستنظرة جوزها . وانا مستنظرة أبوى وأمى يرجعوا معاه حدانا ..

ومنذ ذلك اليوم ، وقف العمدة فى صفها ضد اخيهـــا الشيخ طلباوى .. خفق قلبه بحب أبوى لها ، وأيقن أنها لن تكون سعيدة ابدا لو تركت الجبـــل حيث تنتظر وتحلم ، وذهبت الى أســـيوط حيث تعمل خادمة فى بيت أخيها ، مهانة ذليلة ، بلا حلم ولا أمل .. أحس العمدة ان هذه الفتاة تحب الجبل موطن اهلها بنفس قوة حبه ، وشعر ان الدم الذى يجرى فيها هو نفس الدم الذى يجرى فى عروقه .. وتمنى لو كانت كل نساء الجبل ، وكل رجاله مثلها ..

وحول العمدة عينيه عن مسعدة ، وقد غمره حنــــان كبـــير ، واعتراف لها بالجميل لانها احتفظت بحبها للجبل فى اللحظة التى خانهم فيها الجبل ، ثم عاد ورمقها فى اعجاب وثقة ، كأنه يريد أن

يعوض بنظراته اليها كل الاحتقار الذى تفيض به عيناه عندما تقعان على أخيها الشيخ طلباوى ..

وقال لها العمدة فى هدوء :

ــ اطمئنى يابت .. ربنا يتمم كل حاجة بخير .. باذن الله

وانصرف عنها مبتعدا ، والراحة تملأ صدره .. لم يتوقع أن يحس بهذه الراحة سريعا بعد مفاجأة السرداب ، ولكن مسعدة منحته ثقة كان فى أشد الحاجة اليها .. طمأنته قبل أن يفيق من الصدمة .. طمأنته قبل أن يخلو لنفسه ويقلق

وحث العمدة خطاه ، وأسرع رافعا قامته ، كأنه يشعر بعينى مسعدة تراقبانه وترسلان اليه شعاعاً من العزم والتصميم وملأ رئتيه بالهواء فى كبرياء ، وهو يفكر فى الخوجاية التى فقدت عقلها لضياع الكنز ، ومسعدة التى صفا عقلها لضياع الكنز ..

وكاد يتمتم بصوت مسموع محدثا نفسه « كلتنا شداد . نسوانا ورجالتنا شداد .. ح نصبروا على البلا .. احنا منوطيش يا بوى »

وكانت مسعدة تراقب العمدة فعلا وهو يبتعد عنها ، ولكن بعين واحدة .. العين الثانية كانت مشغولة بمراقبة كهف حسين ، قررت أن تحرس الكهف ، فاذا خرج حسين منه تبعته واذا رأته يبتعد عن الجبل ويمضى الى ذلك الافق الذى يختفى وراءه الرجال ، فستصرخ وتستغيث بالرجال ليلحقوا به ، وستكون أول من يتعلق به بأظافرها وأسنانها ، لن تدعه يفلت أبدا ..

وظلت تراقب الكهف ، حتى جاء أحد الرجال ينادى على حسين ، ويقول له أن العمدة يريده ..

وخرج حسين من الكهف ، ولمح مسعدة تجلس عن بعد ، فلم يبد عليه انه يكترث لرؤيتها ، ومر بجانبها دون أن يلتفت اليها ، وابتسمت مسعدة فى قرارة نفسها ، كانت تعلم عن يقين أن العمدة يناديه ، ليعلنه بضرورة الاسراع بالزواج منها ولم تشعر بقلق أو خوف .. كأنها مطمئنة تماما الى مصيره اليها ..

***

ووصل الشيخ طلباوى قادما من اسيوط بعد اربعة ايام وكان يوما

مشهودا من ايام الجبل ، فقد عادت فى نفس اليوم « الخوجاية » بعد غيابها الطويل فى الشاطىء الشرقى ..

وتناقل أهل الجبل فى دهشة ما صنعته الخوجاية عندما مرت بالمهندس فى القرية النموذجية ، وأمسكت بملابسه تريد أن تمزقها وهى تدفعه تريد طرده هو ورجاله من القرية ، معلنة انها قد نصبت نفسها حامية لأهل الجبل ، وحامية للانسانية من أن تتدهور تحت زحف المدنية الفاسدة .. ولم يفهم أهل الجبل ما قالته الخوجاية فى الدفاع عنهم ، ولكنهم علموا أنها مستعدة لكل شىء .. حتى القتال من أجلهم ، ورحبوا بما فعلته الخوجاية ، ولكن الدهشة والعجب ظلا مستقرين فى نفوسهم ، يصحبهما شك لم يصل الى حد اليقين ، فى أن الخوجاية تتصرف عن شذوذ أو جنون ..

وأكد شذوذ الخوجاية ، تصرفاتها الاخرى ، فبعد أن انتهت من شجارها مع المهندس ، تركته فجأة فى طريقها الى بيتها فصادفها أثناء سيرها معاون القرية النموذجية ، وهو يصطاد العصافير ببندقيته ، وهجمت عليه الخوجاية ، وانتزعت منه سلاحه على غرة ، وصوبته الى الرجل ، تريد قتله .. وهى تقول له فى جنون :

ــ أموت واحد زيك بدل ماسيبك تموت الف عصفورة

فصاح المعاون متوسلا وقد استولى عليه الذعر :

ــ لكن دول عصافير ياخوجاية ..

ــ عصافير أحسن منك .. العصافير ماتقتلش حد ..

وأدرك المعاون انه أمام مجنونة ، وانها ستقتله حتما ، فحاول الاعتذار ، ووعدها انه لن يقتل العصافير ابدا ، وطلب منها أن تحطم بندقيته ، واستمر فى توسلاته حتى اقتنعت اخرا بانه صادق فى توبته فحطمت البندقية ، ثم طلبت منه أن يعطيها العصافير التى اصطادها لتدفنها .. وأعطاها المعاون العصافير ونجا بجلده

كان أهل الجبل يتناقلون هذه القصة ، وسؤال واحد يتكرر على لسانهم يرددونه ضاحكين ساخرين ، عما اذا كانت الخوجاية تدافع عنهم لانها تظنهم عصافير .. أم هى تدافع عن العصافير لانها تظنها من اهل الجبل .

ومع ذلك لم يضحك أحد عندما جاءتهم الخوجاية تزورهم بعد

عودتها الى بيتها . قالت لهم كلاما انزعهم ، وزرت لهم ان المهندس هدها .. سينقل الجميع حالا مستعينا بقوة البوليس ، وكانت تتكلم بصوت مرتفع كانها تلقى خطبة . ولم ترجه كلامها الى احد بالذات ولم تقع نظراتها على رجل معين ، لا العمدة ، ولا حسين ، ولا اى رجل اخر ، كانت نظراتها واسعة مرتفعة فوق الرءوس ، ومضت تثير الفزع بكلامها اينما وجدت جماعة من الرجال والنساء أو الاطفال .. وحتى وهى تسير وحدها عائدة الى بيتها ، كانت تواصل رواية شجارها مع المهندس كانها تريد اثارة صحور الجبل

والتف أهل الجبل حول العمدة بعد ذهاب الخوجاية ، وقد اقبل الليل ، وسادهم الوجوم ، وظلوا ساهمين حتى انفجر حسين على فجاة ، وفى صوته كل المرارة التى يختزنها من فشله فى الكحت ، صاح فيهم قائلا :

ـ انا ح احرج البنايات ..

ولم يعترض احد على حسين ، بل اقتربوا منه صامتـــين ، كانهم يريدون التعبير عن موافقتهم ، وعن رغبتهم فى المشاركة وفى التنفيذ

وفى تلك اللحظة اقبل الشيخ طلباوى قادما من جوف الليل ، وما كاد يرى الجميع حتى ظنهم يتشاورون فى امر زواج اخته مسعدة من حسين على ، كان هذا الزواج هو كل مايشغل راسه ، وقد اعد هجوما على حسين وعلى حياة الجبل وتعاستها

ولكن العمدة اسرع بتوريط الشيخ طلباوى فى مشكلتهم بمجرد ان القى عليهم التحية ..

وظن الشيخ طلباوى ان هذه المشكلة ستساعده فى عرقلة الزواج ، فقال وهو يكتم فرحه .. وقد تلون صوته بشماتة يحاول اخفاءها :

ـ وح تعملوا ايه .. سلموا امركم لله

فصاح احد الرجال :

ـ حسين على ح يحرق البنايات ..

وصعق الشيخ طلباوى وهتف على الفور :

ـ ادى اخرتها .. شقيقتى لن تتزوج مجرما

وتلفت الشيخ حوله ليرى وقع كلماته العربية الفصيحة فى نفوس الرجال .. وسرعان ما ادرك انه ارتكب خطا جسيما . كانت العيـــون

تنظر اليه مهددة تكاد تقذف بالشرر ؛ وزاد شعوره بخطورة موقفه عندما رآهم صامتين لا يريدون مناقشته .. كانهم عقدوا العزم على الحريق .. وعلى الفتك به اذا اعترضهم

وتململ الشيخ طلباوى وانكمش داخل جبته ، وبدا يبحث عن مخرج للمازق الذى وقع فيه ، اراد ان يقول اى شىء وان يسمع منهم اى كلام ، وقال فجاة :

ـ ماتكتبوا شكوى للحكومة ..

وقطع حسين على قصته التى يرويها لى عند هذا الحد ، ونظر الى وكانه يقول لى « انت عارف الباقى »

وكانت الشمس تبزغ عند الافق البعيد ، ونور الصباح ينتشر سريعا فى كل مكان ، يطاردنى ويدفعنى وانا اسير بخطوات متعثرة ، وجسدى يكاد الارهاق يهلكه ، فى الطريق الطويل الى القرية النموذجية

بدد الضوء ، رغبتى الجامحة فى البقاء ، وكشف لى حقيقتى وهى اننى لست من اهل الجبل ، ولابد من عودتى الى العالم الذى جئت منه .. وكان تعبى والالم فى ضلوعى ، وتضعضع قوى جسدى ، حقائق تصرخ داخلى ، انى لابد ان اعود

ورغم ذلك تشبثت بلحظات اخيرة اقضيها فى الجبل واسمع فيها صوت حسين على ..

سالته فى صوت ضعيف مكدود :

ـ انت مبسوط من جوازك ياحسين

فضحك قائلا :

ـ الحمد لله ..

وبان التردد عليه ، قبل ان يقول وكانه يهمس الى بسر

ـ تعرف مرتى بتجول ايه .. وسكت وقد زاد تردده

فسالته ، وانا المح من بعيد مبانى القرية النموذجية .

ـ بتقول ايه ياحسين ..

فقال بصعوبة :

ـ انه .. يا حسين ان عرصى نتموا الكحت

الفصل العاشر

وصلت الى القرية وأنا بين اليقظان والنائم ، اتلمس طريق خطواتى بصعوبة واكاد لا اتذكر من أين اتيت ، والى اين وصلت وكل همى ان ارى شيئا يصلح لان القى عليه جسدى وانام ..

ورأيت من خلال جفونى النصف مغمضة .. المهندس قادما نحوى فى عباءته الخضراء ، يسبقه صوته وهو يقول فى انفعال :

– أوه ياربى • أوه • لا لا • أوه يا استاذ فتحى • موش ممكن موش ممكن ياربى

ويبدو أن منظرى كان مخيفا ، ذقنى طويلة خشنة ، وملابسى متسخة وشعرى منكوش ، وعيناى منفوختان محمرتان .. وجسدى يتطوح فى الهواء مع كل خطوة متعثرة اخطوها ..

ولم استطع مواصلة الانصات لتأوهات المهندس ، كان صوته يطن حولى بلا معنى . وطرقت اذنى كلمات وجمل متقطعة .. افتكرتك رجعت الاقصر . عملوا فيك حاجة . تحب تفطر . اوه ياربى . واستمرت الكلمات تلاحقنى حتى وصلت الى باب الغرفة التى قضيت فيها الليل من قبل فقلت له بصوت لاهث :

– انا رايح انام

فسال فى لهفة •

– لكن ايه اللى حصل !

فاجبت بلا وعى :

– بعدين •

وفتحت باب الغرفة ، فرأيت السرير عن قرب واغلقت الباب خلفى، ولعلى اغلقته فى وجه المهندس . والقيت بجسدى على السرير . . ونمت ..

واستيقظت عدة مرات أثناء نومى ، فتحت عينى أول مرة ، وتذكرت

حسين على ، وهو يقول لى قبل ان اودعه . ان زوجته تلح عليه كل ليلة فى ان يتم الكحت ، ولم اعقب على كلامه بشىء فى ذلك الوقت ، ولكنى الان وانا راقد على السرير ، اريد ان اقول له اشياء كثيرة عن الكحت . راسى ملىء بكلام غير واضح ، اشبه بالهذيان

قلت لنفسى : كان يجب ان أنصح حسين بابلاغ مصلحة الاثار بمكان الكنز . فيتولى رجالها فتح المقبرة الفرعونية . وستحدث ضجة عالية ، مثل التى وقعت بعد اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون ، وسيأتى الاف السياح الجدد ، كل عام لمشاهدة المقبرة الجديدة ، وفى نفس الوقت ، تقوم نساء الجبل باعداد اطباق القش ، ويقوم الرجال بصنع التماثيل ، ويقيم اهل الجبل معرضا دائما لمصنوعاتهم ، ويبيعون منها العشرات كل يوم للسياح . انهم يصنعون أشياء جميلة حقا ولا ينقصها سوى الناس الذين يشترونها . وامامهم فرصة ذهبية ، لياتى اليهم الناس من جميع انحاء العالم . فرصة الاعلان عن كشف مقبرة جديدة فى المنطقة التى يسكنون فيها

ان الكنز الفرعونى لن يتبدد . ولن يشتريه مهربو الاثار بثمن بخس .. بالعكس ، سيصبح الكنز دعاية لا تقدر بمال لاهل الجبل ولصناعتهم

وتخيلت حسين على يستمع الى هذا الاقتراح ، ويتردد فى الاقتناع به . وينظر الى حذرا . ثم يطلب منى ناصحا ان اكتم هذا الاقتراح بين ضلوعى . والا أبوح به لأحد ، لان مجرد التصريح به بين اهل الجبل ، امر خطير غير مامون العواقب . انهم لايثقون فى رجال الاثار . ولا يطمئنون الى معاملتهم ، فكيف يلقون بين ايديهم بالكنز الذى هو كل أملهم ..

***

وتقلبت فى فراشى ، والنوم يكاد يطفى على ، لولا بريق صور تتتابع كانها حلم . ارى خلالها أهل الجبل ، وهم يفتحون المقبرة فعلا ، ويصلون الى الكنز ، والخوجاية التى لم تعد تطمئن الى حسين على ، قد تآمرت مع بعض الرجال ليستولوا على الكنز وحدهم ، ويحصلوا على ثمنه منها دون أن يوزعوه على الجميع بعدل الله ، كما يقول العمدة دائما . ان المهربين من مصلحتهم دائما الاتفاق مع بعض الرجال .. على ان يساوموا أهل الجبل جميعا على ثمن الكنز

وتخيلت معركة تدور بين حسين على والرجال الذين اتفقوا مع الخوجاية . وخلال المعركة يؤمن حسين بان الكنز يثير الاطماع ، ويؤدى الى التقاتل . والى استغلال مهربى الاثار لهم . وان خير شيء لاهل الجبل ، هو ان يبلغوا الحكومة عن الكنز . وسيتذكر حسين نصيحتى التى قلتها له . وهى ان ينتهز فرصة اقبال الناس على منطقتهم ، بعد اكتشاف المقبرة ويصنعوا التماثيل والاطباق القش . وسيحدث اهل الجبل عن هذه النصيحة ، وسيضيف عليها ، ان تسليمهم الكنز للحكومة ، سيلفت الانظار اليهم ، ويجعل الناس تهتم بمشكلتهم وعندئذ يطالبون الحكومة بصوت قوى ، بان تهيىء لهم فرصة العمل ..

واسترسلت فى أحلامى

أهل الجبل يقتنعون بكلام حسين على . خشية ان يستمر القتال بينهم ..وصورة وقد يتقدمه العمدة وحسين ، يعبر النيل الى الشط الشرقى ، ويذهب الى مركز البوليس ليبلغ ضابطا اصابه الذهول ، انهم جاءوا ليسلموا الحكومة كنزا يقدر بملايين الجنيهات .. والجبل مزدحم بعلماء الاثار والسياح . والفتيات يجلسن يبعن اطباقهن الجميلة . والرجال يبيعون تماثيلهم

هذا هو الكنز الحقيقى الذى اكتشفه اهل الجبل . تماثيلهم التى يصنعونها بايديهم هى الكنز الحقيقى . هى الاثار الحقيقية . انها ليست مزيفة . لانها من صنع ايديهم . لانها نتيجة عملهم لانها ترمز للعمل ..

العمل هو الكنز الحقيقى .

وانطلقت مع احلامى . الحكومة تقتنع بضرورة تشييد مصانع للتماثيل وللنسيج لرجال ونساء الجبل . وتقام المصانع الجديدة .. المصانع التى هى الكنز الذى كانوا يبحثون عنه دائما ..

وتقلبت فجاة فى فراشى . وانا احس بانقباض فى صدرى .. ماهذا الهذيان الذى يدور فى رأسى . ما هذا التخريف . هل تصنع الحكومة كل هذه الاشياء لاهل الجبل .. ان صورة الحكومة مرتبطة فى ذهن العمدة بلقائه بالاميرة السكرانة فى القرية النموذجية . انه لم يفلح فى التفاهم مع الاميرة اخت الملك . الحكومة هى البوليس الذى يريد انتزاعهم قسرا من كهوفهم . ليلقى بهم فى بيوت لها قباب كالمقابر .. الحكومة ليست حكومتهم ، انها لاتفكر الا فى السيطرة عليهم . ولا شيء

فى الوجود يقنعهم بانها ستحسن معاملتهم لو سلموها الكنز .. بل هى ستتخذ تسليمهم للكنز حجة ضدهم ، فتحاكمهم لانهم كحتوا الجبل بغير اذن منها ، هذا هو منطق القانون . منطق الحكومة

انى اهذى ..

وتذكرت مسعدة ، فى تلك اللحظات القليلة التى رايتها فيها ، وهى تكذب على لاننى من رجال الحكومة . وتقول لى ان زوجها حسين غائب فى الواحات . انها لاتطمئن على زوجها مع رجل من الحكومة

واغفيت ، ولم اعد احلم بشيء . وتهت عن العالم من جديد

وفتحت عينى للمرة الثانية ، لاسمع صوت امرأة عجوز تتحدث بالفرنسية ، وكانت تقول « اقتراح مدهش يجب تنفيذه فورا » وعجبت للصوت الذى ياتى من خارج غرفتى . وخيل الى انها تتكلم عن احلامى عن اهل الجبل . ثم سمعتها تقول : « انى مقتنعة تماما ان هذه القرية تصلح ان تكون فندقا عالميا للسياح »

وجعلنى صوت السيدة اظن انى نائم فى مركب . لست ادرى لماذا . ونمت من جديد

وفى المرة الثالثة ، فتحت عينى ودرت بها مستطلعا الحجرة التى انام فيها ، وبذلت جهدا كبيرا حتى تذكرت اننى نائم فى القرية النموذجية، ولمحت مرآة مثبتة على الحائط خلفى وامضيت وقتا طويلا وانا افكر فى القيام والنظر الى المراة ، وتحسست ذقنى فوجدتها خشنة ، وشعرت بجسمى لزجا تفوح منه رائحة العرق ، والتراب حول عنقى وفى رموش عينى . واكتشفت فجاة انى نائم بملابسى كاملة . حتى حذائى لم اخلعه ، وقمت فزعا ، ونظرت فى الساعة فوجدتها الخامسة .. صباحا ام مساء . لا اعرف ، ان الضوء قد ينبىء عن الشروق أو الغروب ، واتجهت الى المرآة ، وحلقت فيها فلم أعرف نفسى .. كنت اقرب الى الغوريللا من بنى ادم . وجلست على حافة السرير يائسا لا ادرى من اين ابدأ ، كى أصلح مظهرى . ولكنى لم أصنع شيئا ، وسرحت مرة اخرى مع الجبل واهله

كنت كمن افاق من النوم بعد حلم غريب . يحاول ان يتذكر تفاصيله . وحاولت ان اقنع نفسى بانى لم اكن احلم فذهبت محاولاتى عبثا ، ولازمنى الاحساس بان كل ما رايته فى الجبل ليس حقيقة وانما

حلما . العمدة ، والرجل الذى كان يحرسه وكاد يقتلنى ببندقيته ، والمقبرة الفرعونية التى رايت على جدرانها صور الفلاحين والفراعنة ، والرجل الذى دعانى الى شرب الشاى فى كهفه بعد ان امسك بخناقى، ومسعدة والشيخ طلباوى . وحسين على . والمقبرة التى رايت الخوجاية تصلى فيها للفراعنة

وظلت الصور والشخصيات تدور فى راسى بلا هدف او مغزى ،حتى سمعت خارج الغرفة صوتا أجش يسال :

ـ كام صندوق بيرة عندك

فاخرجنى الصوت من خمولى تماما ، وخرجت من الغرفة فرايته رجلا مهيبا يلبس جلبابا بلديا ، ينظر الى فى فضول

وارشدنى الرجل فى رقة بالغة . لاتتفق مع مظهره المهيب الى الحمام ، وعلمت منه اننا فى الخامسة بعد الظهر وان الشمس قد غربت ، وأحضر لى أدوات الحلاقة ومناشف نظيفة ، وزجاجة كولونيا، وقبل أن يتركنى . قال مقدما نفسه لى :

ـ انا عبد الصمد

فنظرت اليه فى دهشة ، وسالته على الفور :

ـ انت المقاول ..

فاجاب باسما :

ـ ايوه ..

انه احد رجال الجبل ولا شك ، نفس القامة الفارعة ، والمنظر المهيب والصوت الاجش العميق ، لولا بعض النعومة المصطنعة التى تختلف تماما عن الرقة التى وجدتها فى رجال الجبل . رقة عبد الصمد ظاهرة ، فيها تقليد كبير لابناء المدينة ، أما رقة الاخرين فراسبة فى اعماقهم ، لم اكتشفها حتى عبرت مظهرهم الخشن ولقاءهم الجاف اول الامر ..

وقلت لعبد الصمد قبل ان ينصرف :

ـ البنايات ح تخلص امتى ..

فابتسم عن اسنان بيضاء لمعت فى وجهه الاسمر وقال فى اهتمام شديد :

ـ والله يابيه كفاية بنايات . وبلاش دوشة دماغ ، والحكومة تعمل

البنايات دى لوكاندة للسياح . وانا مستعد اعملها لوكاندة عظيمة . واجيب فيها الاكل المفتخر والشرب . ويسكى . ونبيت . وبيرة . وكل حاجة يعوزها السياح ايه راى سعادتك

وفتحت صنبور المياه وقلت له :

ـ فكرة ..

وانصرفت عنه الى غسل وجهى بينما وقف هو برهة متململا ثم انصرف ..

وخرجت من الحمام ، وما زال اقتراح عبد الصمد يدور فى راسى ، وانا اعجب للنهاية التى يريدها هذا الرجل للمشكلة القائمة .. انه يريد أن يضرب عصفورين بحجر . يرضى أهله فى الجبل ، فلا يضطرون الى سكنى البنايات ، وهو يمضى فى طريقه مستغلا هذا المشروع لصالحه الخاصة ..

وقابلت عبد الصمد ينتظرنى فى آخر الممر ، وقد اتسعت ابتسامته .. انه دائم الابتسام ، كانه يدرب نفسه فعلا على مهنة مدير فندق من واجبه الترحيب بالنزلاء

وقال عبد الصمد فى قلق :

ـ بسعادتك موش ح تكلم البيه المهندس فى فكرة اللوكاندة

فسالته فى دهشة :

ـ أكلمه ليه ..

فالتفت حوله ثم قال :

ـ خسارة البنايات دى فى اهل الجبل .. ح يوسخوها .. وكمان مغرضهمش يسكنوا بيها . والسياح محتاجين لوكاندة على الشط الغربى جنب الاثار . يحبوا يعيشوا فى الجبل . فيه تغيير عن اللوكاندات اللى فى البر الشرجى

قلت له وقد زاد فضولى :

ـ والمهندس موافق على الفكرة

فتردد الرجل ثم قال فى ضيق :

ـ ابدا .. المهندس غرضه يتم مشروعه ..

وقلت لعبد الصمد وعلى شفتى أبتسامة اكبر من ابتسامته :

ـ وعايزنى اكلم المهندس ليه ..

فاجاب الرجل فى ارتباك

ـ سعادتك اللى جاى تحجج وتفصل فى الموضوع كله . . والمهندس معاه دلوقيت موظف كبير من وزارة المعارف بيكلمه علشـــان ياخدوا البنايات للتلاميد

وصرخت فى غير تصديق :

ـ تلاميذ ايه . حتى الحكومة نسيت المشروع ده معمول علشان ايـ ..

ولم يفهمنى عبد الصمد ، ونظر الى متسائلا يريد أن يعرف مغزى سؤالى

فسالته فى حدة :

ـ المهندس فين ..

فاشار الى الخارج وقال :

ـ جاعد بره ..

وقابلنى المهندس منفعلا ، وكان يجلس معه رجل سمين قصير تفحصنى بعينين مسترتبتين قبل أن ينهض ويمد الى يدا لينة طرية ليصافحنى ..

وما كاد المهندس يفرغ من تقديم كل منا للاخر ، حتى انهمت من جديد فى المناقشة التى كانت تبدو حامية بينه وبين ضيفه

قال المهندس وهو ينظر الى كانه يريد الاستعانة بى :

ـ انا انتحر ولاسبش القرية دى للتلاميد . انا موش بانى عنابر نوم . انا بانى بيوت للفلاحين يسكنوا فيها ، عائلات ، اب وام واولاده اسرة كاملة مش ولاد مراهقين يتنططوا هنا وهناك . اوه ياربى . . مستحيل .

ورمقه الرجل السمين بعينين باردتين كعينى سمكة ميتة ، وقال له فى صوت رفيع مرتفع .. صوت رجل امضى اغلب حياته يدرس للتلاميذ :

ـ بس ماتزعلش منى . دا مجرد اقتراح باعرضه عليك . انا سمعت بالمشاكل الموجودة بالنسبة للقرية دى . ولما استلمت عملى الجديد ، وبقيت مسئول عن تنظيم رحلات المدارس ، فكرت فى ان احسن وسيلة للاستفادة من القرية هى أن الطلبة ينزلوا فيهـــا فى

رحلاتهم الشتوية فى الاقصر . ذى بنايات واسعة وممكن توفر علينا فلوس كتير .. وقلت اعرض عليك الفكرة قبل مااتكلم مع معالى الوزير .. الاصول كده .

فانتفض المهندس قائلا فى ثورة :

ـ حتى الوزارة حتخذلنى .. طيب انا بقول ان الرجالة فى الجبل جهلة مبيفهموش ، ولازم نمدنهم بالقوة .. تقوم الوزارة كمان متفهمش .. موش هيه اللى وافقت على المشروع .. موش هى اللى اتحمست له . الوزير السابق اللى وافق على المشروع كان عايز يعمم التجربة بعد نجاحها هنا ..

فقاطعه الموظف فى برود قاتل :

ـ لكن التجربة باين عليها موش ح تنجح ..

فصرخ المهندس :

ـ ح تنجح بالقوة .. الناس موش عايزة تتمدن الا بضرب الكرباج. طيب اذا كان ده اللى عايزينه ، نضربهم بالكرباج

والتفت الى المهندس فجاة وقال :

ـ انت جيت الصبح دقنك طويلة . وحلقتها . حد قال لك تحلق دقنك والا شعورك بالنضافة هو اللى خلاك تحلقها

فقلت له ، وقد فقدت كل احساسى بجدية المناقشة . وكان ما يدور امامى فصل هزلى ..

قلت هازلا :

ـ يعنى لو ماكنتش حلقتها .. كنت ضربتنى بالكرباج علشـــان احلقها ..

فنظر الى فى غيظ وقال فى عصبية ؛

ـ ارجوك تفهمنى . ارجوك . دى مسالة خطيرة . وفضيحة عالية. سمعتنا فى العالم ح تبقى طين . انتم ماتعرفوش اد ايه مهتمين بالمشروع ده فى اوربا وامريكا . دا عمل العمر كله . اسمى ارتبط بيه ، موش كل مهندس تيجى له فرصة انه يبنى بلد . انا جت لى الفرصة ..لكن انا عارف ان فيه اعداء كتير بيحسدونى ، وعايزين يحطموا المشروع . انا ح حارب موش ح اقف ساكت

وبدات السخرية التى اشعر بها تتحول الى قرف وغثيان . كل كلام

اسمه هنا ، ينتهى الى المصلحة الشخصية . عبد الصمد يبحث عن الربح من وراء فندق ، والموظف السمين يبحث عن مشروع جـــديد يتباهى به امام الوزير والمهندس حريص على سمعته العالمية ، لا أحد يذكر أهل الجبل ، انهم لا يفكرون فيهم على الاطلاق ..

ولمع فى رأسى خاطر غريب ..

سينتصر اهل الجبل بالنسبة لمشكلتهم من حيث لا يتوقعون . انهم لن يهبطوا القرية النموذجية ، لان الذين بنوها بداوا يتشاجرون عليها دب الانقسام فى صفوفهم بعد ان ارتفعت المبانى ورأوها بعيونهم ، ذهب الكلام الاجوف الذى كانوا يتشدقون به عن تحسين حالة الفقراء الذين يعيشون فى الكهوف . وظهرت الاسباب الحقيقيةالكامنة وراء المشروع .. ربح شخصى ، أو مجد شخصى ، ومن يدرىماذا ستاتى به الايام ، من أفكار أخرى لرجال ذوى أطماع جديدة فى هذه القرية ..

وقمت مستأذنا اريد الانصراف لاعود الى الاقصر ، ولم تفلحمحاولات المهندس فى ابقائى تلك الليلة معه .

***

وعبرت النيل وقد اقبل الليل .. وذهبت الى بيت صديقى وكيل النيابة ، فوجدته غارقا بين قضاياه ، يفحصها فوق منضدته الخشبية، وهو جالس كعادته بالقميص واللباس . وحاول أن يؤكد لى انه كان قلقا على مصيرى بعد غيابى الطويل فى الجبل ، ولكنه لم يفسر لى لماذا لم يتخذ اى اجراء للبحث عنى . لعله وجد فى قلقه على تسلية جديدة له ، فاكتفى بهذا القلق دون ان يصنع شيئا ..

واستمعت اليه وانا اغير ملابسى الداخلية ، واعد حقيبتى لالحق بقطار الليل العائد الى القاهرة ..

وقال لى وهو ينقر بقلمه الرصاص على ملف القضية أمامه :

ـ هيه .. اتأخرت . لازم انبسطت .

واحترت ، ماذا أقول له . منذ عودتى من الجبل ، وانا أسمع كلاما. والقى اسئلة ، لا صلة لها بما اشعر به داخل نفسى ..

قلت له . اى كلام :

ـ أيوه انبسطت ..

ن فى فضول وانفعال :

ـ شفت المهندس .. الاميرة مجتش تزوركم وانت هناك ؟

أجبته وأنا أرثى لحاله .. ان الاميرة لا تفارق خياله أبدا .

ـ لأ ماجتش ..

وصاح فى أسى وهو يرمى بقلمه على المائدة ..

ـ خسارة .. فاتتك فرصة العمر ..

وكنت على وشك أن اروى له ما شاهدته فى الجبل ، ولكنى عدلت كان كل ما سمعته سر خاص بى ، لا يصح أن أبوح به لغريب .. كان يبدو غريبا عنى .. كان لم تكن بيننا صداقة يوما ما ..

ورفضت الحاحه على فى قضاء الليلة معــــه ، وصممت على السفر ، فترك قضاياه ، وارتدى ملابسه ، وخرج معى الى المحطـــة يودعنى .. وظل يتكلم معى فى كل شىء .. عن القاهرة ، والنساء ورغبته فى الزواج ، وحيرته فى اختيار زوجة تصلح له ، وبائعـــة الفراخ الحلوة التى تتردد على بيته ، وفجأة سألنى :

ـ على فكرة . انت عملت ايه فى التحقيق ..

فقلت وانا أهز كتفى :

ـ ولا حاجة ..

وضحك قائلا :

ـ الحقيقة انا موش فاهم ايه فايدة التحقيقـــــات بتاعتكم .. بتحققوا ازاى من غير ما تكون محاكم نيابة وبوليس .. فيه تحقيق ينفع مع ناس زى دول من غــــير ما تقبض على عشرة خمستاشر اتعودوا يصفوا مشاكلهم بينهم وبين انفسهم على طريقتهم .. وتفضل تقرر فيهم.. وبرضه مافيش فايدة .. مستحيل يتكلموا

***

وقابلنى مدير التحقيقات متهللا .. وعانقنى فى حرارة كأنه يريد ان يتأكد وهو يضمنى اليه انى عدت فعلا ، سالما معافى من عنـــد الحرامية ..

وسألنى فى لهفة :

ـ هيه .. عملت ايه هناك ؟

فمددت يدى بملف التحقيق ، وما كاد ينظر اليه ، حتى اتسعت عيناه ذعرا .. كان الملف خاليا من الاوراق ، ليست فيه غــــير

شكوى حسين على ..

وصاح المدير ..

– التحقيق راح فين .. اوعى يكون ضاع منك ..

فقلت فى هدوء :

– أبدا .. هو ده التحقيق ..

وسألنى فى دهشة وهو يفحصنى بنظرات مستريبة ..

– ازاى ده التحقيق .. انا موش فاهم .. ايه اللى حصل

واجبته فى برود :

– ولا حاجة .. حسين على كاتب الشكوى ، لقيته مسافر الواحات .. وماحدش عارف ح يرجع امتى ..

فصاح فى انفعال :

– والاختلاسات اللى فى القرية النموذجية .. معملتش فيها حاجة ..

قلت فى برود أكبر :

– ولا حاجة .. نبعث مفتش ادارى يعمل جرد .. وخلاص

وتنهد المدير فى ضيق وقال فى غيظ :

– طيب اكتب مذكرة بانتداب مفتش ادارى ..

ورفع يده يائسا وقال :

– أنا موش عارف ابعت الملف ده ازاى للوزارة ، ومافيش ورقة تحقيق واحدة .. انت سافرت على حساب الحكومة .. لازم تثبت لها انك اشتغلت .. كويس يقولوا انك رحت تتفرج على الاثار ..

قلت فى عناد :

– يعنى كنت عايزنى اعمل ايه ..

فهتف فى حدة :

– لسه ح اقولك تعمل ايه .. اسأل كام واحد .. اسأل المهندس والمعاون .. اسأل كبير مفتشى الاثار .. كنت تقدر تعمل محضر يملا العين .. هى شغلانة يا اخى ..

وتركته وانا اشعر بانى لم اعد صالحا كى أكون مفتشا للتحقيقات ..

وجرفنى تيار الحياة فى القاهرة بعيدا عن أهل الجبل ، ومرت

بى الايام والشهور .. وانا اهمل كل تحقيق أكلف به ..

وتكدست ملفات القضايا فى درج مكتبى .. دون أن افتحها .. ولم يكن واضحا فى ذهنى أن هناك علاقة بين اهمالى للعمل والتجربة التى مررت بها فى جبل فى الصعيد ، كل ما أدركته فى ذلك الوقت .. أن اهمالى بدأ بعد عودتى من هناك ..

وانقطعت صلتى تماما باهل الجبل .. لم اعد أسمع عنهم ولكن ذكراهم كانت تغمرنى فجأة فى أى وقت وفى أى مكان كألم مفاجىء ينقبض له صدرى . ويدفعنى الى حزن غامض يستولى على لفترة من الوقت

وكنت اتساءل ، ترى هل استمروا فى كحتهم ، وهل حصلوا على الكنز سرا . دون ان يدرى احد . ترى هل انتصر المهندس واجبرهم على سكنى البنايات ، ماذا حدث لحسين على . والعمدة ، ومسعدة ، والخوجاية . اسئلة كثيرة تمر بخاطرى ، واتلفت حولى ، فلا اجد احدا يعلم عنها شيئا ، او عنده الجواب عليها

ومرت سنتان ، واضطررت الى الاستقالة . بعد ان اصبحت مصدر متاعب جمة لمدير التحقيقات بكثرة غيابى عن العمل ولم يخطر ببالى انى سأستقيل بسبب فشلى فى تحقيق الجبل . كل ما حدث انى تذكرت هذه القضية بعد ان وقعت استقالتى مباشرة ، وكان مدير التحقيقات يقرأ الاستقالة وهو لا يكتم ارتياحه الظاهر فى عينيه للتخلص منى .. اما انا فقد شغلت عنه وسرحت بخيالى فجأة مع الكهوف والمقابر الفرعونية وسكانها

وظن المدير انى متأثر للاستقالة .

فوضع على شفتيه ابتسامة مصطنعة وقال :

– هيه . ما تعدل عنها ،وخليك معانا . انت باين عليك زعلان

– الحقيقة انا سايب ورايا ذكريات كتير ..

وقال فى شبه سخرية :

– ذكريات ايه اللى الواحد يهتم بيها فى وظيفته . ذكريات كلها تعب وشقا ..

قلت له وانا احاول الابتسام :

– على رايك ..

وكان هذا هو آخر عهدى بالتحقيقات

وسمعت بعد ذلك عن اهل الجبل . قرات يوما فى الصحف نبأ عدول الحكومة عن مشروع القرية النموذجية واسكان الاهالى فيها

لقد انتصروا ..

واثبتوا فى انتصارهم ، فشل كل مشروع يقوم من اجل اسباب لا صلة لها بالاصلاح الحقيقى . ما اكثر المشروعات البراقة التى تتخذ قناع الاصلاح ثم يتضح انها قامت من اجل مصلحة شخصية ، او مجد شخصى ، او فكرة خاطئة ، او محاولة ساذجة لتقليد اوربا وامريكا . الاصلاح يجب ان يكون للاصلاح ، يجب ان يكون لمصلحة الذين يعد من اجلهم المشروع الاصلاحى . وهذا هو آخر ما فكر فيه من قاموا بمشروع القرية النموذجية . فكروا فى شكل القرية من الناحية الهندسية الفنية ، وفكروا فى السياح الذين سيشاهدون القرية فيعجبون بها ويقولون عنا اننا نعمل على ترقية مستوى الفقراء ، بلا عمل بعد بناء هذه القرية

ان القرية النموذجية رمز . وليست مجرد حادث عرضى وقع فى بقعة نائية من بلدنا . انها رمز للمشروعات المتلاحقة التى نصفق لها فى حمى وحماس . ثم ننساها بسرعة بعد فشلها ، لاننا نخجل من ذكراها

المشروعات اصبحت كالموضة ، تثور حولها الضجة وتلمع بمناسبتها بعض الاسماء ، ثم تختفى ولا يبقى منها اثر نافع للناس ، ثم تثور ضجة جديدة حول مشروعات اخرى جديدة

كم هو مفزع حقا ان يستمر هذا الحال ..

وروى لى بعض اصدقائى من الفنانين الذين ذهبوا الى الاقصر وعادوا ، بعض ماكانوا يشاهدونه فى الجبل ، كنت اسالهم عن العمدة وحسين على او مسعدة فيهزون رءوسهم ويقولون انهم لا يعرفونهم ولكنهم شاهدوا الخوجاية اكثر من مرة ، وهى تجمع القطط الضالة ، والكلاب المريضة وتعنى بها .

ووصفوا لى القرية ، وهى خاوية تسكنها الاشباح ، تخلى عنها الجميع ، وبقيت بجدرانها ، ومسجدها ومدرستها وبيوتها ، صامتة يعلوها التراب ، وتعوى فيها الرياح ..

ماذا يصنع اهل الجبل الان بعد ان استقروا فى كهوفهم ، وزال عنهم

خطر الانتقال الى القرية . ان آخر كلمات حسين على ، وهو يودعنى، هى ان زوجته تلح عليه كل ليلة فى اتمام الكحت .

وقلت له وانا ألمح بنايات القرية النموذجية قبل ان افارقه :

ـ وح تعمل ايه ياحسين

فنظر الى نظرة عميقة وقال :

ـ الكحت مكتوب علينا . كل ما الواحد يهرب منه يلاجيه حدامه

وارتفع صوته فى انفعال :

ـ لو مكحتش اعمل ايه . انا عارف كل حاجة ، وشايف بعينى اللى ح يجرى . وانا باضرب فى الحجر . وباموت تحتيه . وشايف ولادى وهم بيضربوا فى الحجر وبيموتوا تحتيه . لكن اعمل ايه . مكتوب علينا .

قلت له وانا امد يدى اليه مصافحا :

ـ انا راجع مصر ياحسين عايز منى حاجة ؟

فقال فى حرارة :

ـ عايز سلامتك . ابجى ارجع زورنا

وابتسم فى مرارة وقال :

ـ يمكن تلاجينى النوبة الجاية . مجطع الايدين والرجلين

قلت له وانا اكاد ابكى ، لولا التعب والاجهاد الذى شل كل شىء فى حتى دموعى :

ـ متقولش كده ياحسين . سلامتك ياراجل . الدنيا احسن من كده بكتير

قال وهو يشد على يدى بقوة :

ـ الله يسلمك انت ياراجل ..

ومضيت فى طريقى الى القرية النموذجية وكان هذا آخر عهدى به .. لم اعد اسمعه او اراه

***

اخر مرة سمعت فيها عن اهل الجبل فى صباح يوم من ايام الشتاء الماضى ، كنت اقرأ صحف الصباح ، واذا بى اجد فى الصفحات الاولى لجميع الصحف ، خبرا عن زيارة الرئيس جمال عبد الناصر والرئيس الاندونيسى سوكارنو للمقابر الفرعونية فى الشاطىء الغربى للنيل

المقابل للاقصر . وزاروا مقبرة فى نفس منطقة اهل الجبل .

وكتبت الصحف تقول : انه بينما الرئيسان يغادران المقبرة أعترضهما عمدة الجبل ، وصمم على دعوتهما للجلوس معه . وجلسا معه على دكة خشبية ، وقدم لهما البرتقال .

وخفق قلبى وانا اقرا الخبر . العمدة مازال بخير بعد كل هذه السنين . انه مازال يدعو ضيوفه ويرحب بهم ويقوم بواجبه كعمدة : فيقدم لهم « البرتقانات »



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٤/٤٩٨٦

I.S.B.N 977-01-3839-8